أحمد خالد توفيق
رفقاء الليل

الجلسة

١

-«هل تدرك معنى ما تقول حقًا؟»
-«قطعًا»
-«وتدرك تبعات هذا؟»
-«أنا لا أكلم محققًا .. أعرف أنك تحتفظ بسرية المحادثة كجزء من آداب المهنة»

كان الموقف محيرًا. لا بد أن أكثر من قس اعتراف مر به من قبل، وإنني لأتذكر مسرحية كرسي الاعتراف التي قدمها يوسف وهبي، والتي تدور حول مأزق كهذا .. في فيلم (أنا أعترف) لهتشكوك يجد قس الاعتراف نفسه متهمًا بالقتل مع أنه يعرف القاتل الذي اعترف له! ليس الأمر هنا بهذا السوء والحمدلله..

كلمات المريض مقدسة وسرية، لكن هذا يضعني في معضلة ضميرية حقيقية ..

كان شاكر يجلس على الأريكة يتأمل بطاقة رورشوك التي أعطيتها له، وكنت أنا أجلس خلفه كما تعلم. لا يجب أن تجري اختبار رورشوك والمريض يرى وجهك .. هذه هي البطاقة الخامسة. لا أحب هذه البطاقات التي تظهر بقع حبر، وعلى المريض أن يخمن إلام ترمز، فهي طريقة بالية. ويرى أطباء كثيرون أنها تعكس نفسية الطبيب الذي يفسرها وليس المريض، لكني في أحيان نادرة أعرف شيئًا مهمًا منها ..

هذا الموقف من تلك المواقف بلا شك ...

كان يحدق في بقعة الحبر ويكرر في ثبات:

-«هذه هي روح الفتاة التي قتلتها منذ عام ..»

****

هذه هي الجلسة الثانية لشاكر عندي. هو محام في الأربعين، من ذلك الطراز الذي يقول الناس إنه هادئ مهذب، ويكتشف الطبيب النفسي أنه بالوعة شهوات وآثام. يسمون هذا الطراز في الغرب «الرجل الدمث الذي يمتلئ قبو داره بجثث الأطفال». نحيل .. ذو عوينات سميكة تطل من خلفهما عينان واسعتان مذعورتان متهمتان كعيني بومة .. تساقط الشعر قليلًا عن مقدمة رأسه، وهناك تجعيدتان عميقتان على جانبي فمه، كما أنه من الطراز الذي تملك حنجرته أو (تفاحة آدمه) حياة خاصة بها، فتتواثب كالقردة طيلة الوقت. أبخر نوعًا، وأقرب للتأنق.

لم أحبه منذ اللحظة الأولى، لكن لم يخطر ببالي قط أنني سأخافه. هذا ما حدث فعلًا. في الزيارة الأولى قال لي إن لديه هاجسًا مخيفًا .. يريد أن يقتل زوجته، وهو يخشى ذلك. هذا وسواس قهري واضح .. عرفت فتيات متدينات يبتن على قارعة الطريق خوفًا من أن يدفعهن الشيطان لممارسة الرذيلة مع آبائهن، وعرفت فتية متزنين يغلقون الباب على أنفسهم ويلقون المفتاح من النافذة خوفًا من أن يقتلوا ذويهم أثناء النوم. ليس كل الوسواس القهري غسل يدين متكررًا كما تتخيل.

الخوف من أن يجن المرء ويرتكب عملًا أحمق هو نوع معروف من الوسواس ..

في الزيارة الأولى سألني شاكر عما إذا كنت حقًا حاصلًا على درجة علمية في علم نفس الجريمة، فأشرت إلى الشهادة المعلقة التي حصلت عليها من هارفارد .. لا أعرف إن كان استطاع قراءتها أم لا لكنه شعر بصدق كلامي ..

قال لي وهو يحدق في السقف:

-«كنت مولعًا منذ صغري بفكرة البلورة السحرية التي تحملق فيها فترى ما يفعله معارفك .. لم أستطع الحصول على بلورة ثم وجدت طريقة تقضي بأن يحملق المرء نصف ساعة كل يوم في قدح من الحبر. تحاول أن تتخيل مشهدًا معينًا وتتخيل تفاصيله .. مع الوقت والمران يكتسب الحبر حياة خاصة به، ويمكنك إذ تطيل الحملقة أن ترى ما يفعله الآخرون فعلًا..»

قلت له في لا مبالاة:

-«يسمون هذا عندنا باريدوليا Pareidolia أي أنك ترى ما تريد رؤيته أو تتخيل أنك تراه .. كلنا نرى وجوه نساء في بلاط السيراميك، ونرى أرانب بين السحب، وخيولًا تجري في بقع الماء»

بإصرار قال:

-«لكن ما أراه في صفحة الحبر لا يكذب . وقد رأيت زوجتي تخونني مع جاري .. رأيت هذا بوضوح وقد تكرر مرارًا ..»

قلت له:

-«يمكنني أن أؤكد لك أن هذا هراء، وعلى كل حال فمن الواضح أن هذا هو سبب هاجس قتل الزوجة الذي يطاردك»

كل رجل طبيعي تمنى بالتأكيد أن يقتل زوجته في لحظة ما، لكنه كما قلت لك (طبيعي)... لهذا ينسى الأمر ويشعل لفافة تبغ

مغتاظًا ويخرج ليسهر مع رفاقه، أما الرجل غير الطبيعي فهو ....

عدت أسأله بصوت هادئ:

-«حدثني عن طفولتك ..»

****

الحبل ..

افتتان هذا الرجل بالحبال بدأ منذ طفولته .. هذا رجل قضى جل حياته مع الحبال والحبر كما هو واضح.

كان يلعب كل الألعاب التي يتم استخدام حبل فيها .. لم يكن يتلذذ باللعبة قدر ما يتلذذ بالحبل.. شيء ما في التصميم كان يروق له. شد الحبل .. الوثب بالحبل ...

في سن العاشرة شعر أن الجميع يكرهونه، وأن الحياة قاسية، وأن أهله لا يرغبون في بقائه حيًا. بحث عن حبل الغسيل وقطع منه جزءًا لا بأس به ثم دخل إلى الحمام. صعد على مغطس الحمام الزلق، وعقد عقدة في دوش الحمام، ثم صنع أنشوطة صغيرة في الطرف الآخر كما تعلّم في السينما، ثم وقف على حافة المغطس ووضع الأنشوطة حول عنقه. من الغريب أنه لم يشعر برعب أو قلق.. فقط شعر بنشوة لفكرة أن يلتف الحبل حوله. سوف يأتون بعد فوات الأوان، ولسوف يبكون بحرقة ولات حين مناص. شعر برثاء حار لنفسه حتى أغشت دموعه الرؤية فلم يعد يرى تقريبًا

.. خواطر محزنة تبعث النشوة في النفس .. لذة التعذب ..البائس الصغير يتدلى وقد انتهت قصة حياته .. أغمض عينيه ووثب من

على حافة المغطس، فقط ليسقط على الأرض فوق مؤخرته . طاخ!! .. لم يحدث شيء .. ونظر لأعلى في خيبة أمل فرأى أن العقدة في الدوش قد ارتخت. لم يكن بارعًا في ربط العقد، وكل ما جناه هو أن آذى ردفيه فعلًا، فلا غرابة في أن يصاب بالبواسير.

-ـ«البواسير لا تصيب من يفشلون في الانتحار ويقعون على مؤخراتهم..»

تجاهل كلامي وواصل السرد. لقد سمع أباه يدق على باب الحمام وقد سمع الارتطام، فهرع يخفي الحبل ويشد السيفون ليوحي بأنه كان منهمكًا، ولعل هذه كانت أول وآخر مرة يجرب فيها الحبل كطريقة لمغادرة العالم ..

في سن المراهقة انتقل ولعه بالحبال إلى لذة أن يكون مقيدًا. كان يبحث عن مكان منعزل أو مغلق ويقيد نفسه بالحبل، طبعًا بطريقة تسمح له بالتحرر، لكنه كذلك كان يحب أن يشعر بأنه عاجز. أحيانًا كان يقنع شقيقه بأن يلعب معه لعبة اللصوص أو رعاة البقر والهنود .. أي لعبة تتضمن تقييده .. هذه لمحة ماسوشية لا شك فيها. رأيت في كتاب طب شرعي رجلًا غربيًا قيد نفسه بالحبال إلى سيارته وجعلها تدور في دوائر لتجره خلفها.. أعتقد أنه وضع قالب قرميد على دواسة الوقود. يتلذذ بهذا الضرب من التعذيب، لكن ما حدث هو أن عجلة السيارة التفت حول الحبل فمزقه الأخير تمزيقًا.

شعرت بقشعريرة لدى تذكر هذا المشهد .. تعذبني فكرة المنتحر الذي يقرر التراجع في آخر لحظة .. بعد الوثب أمام القطار، أو بعد ابتلاع السم الزعاف، أو أثناء السقوط من فوق البناية ..

كانت الجلسة الأولى قد انتهت ، وبالطبع لم أكن أعلم أن الأخ شاكر سيعترف لي فيها بقتل كل الفتيات اللاتي قتلهن ... قتلهن بالحبل طبعًا ...

٢

في الفندق جلست أصغي لبعض الموسيقى، ورحت أنظر لعقارب الساعة في لهفة. بالطبع أجريت مكالمة هاتفية للبيت وأبلغت ثريا أنني سأتأخر .. العمل .. دائمًا العمل.. سأعود فجرًا. قالت شيئًا عن عشائي الذي ينتظرني وعن شريف الذي نام و.. و..

لم أكن رائق المزاج، فأنهيت المكالمة بسرعة وطلبت منها أن تعنى بنفسها. أشعلت لفافة تبغ .. دقات على الباب .. رائحة عطر فاغم يسبقها قبل مجيئها بربع ساعة.. سوسن ..

ينفتح الباب لتدخل سوسن. هي امرأة في الأربعين تستحق كل حرف في كلمة (امرأة) . الأنوثة المطلقة كما خلقها الله. تلهث من الجهد ومن التوتر وهذا يزيدها فتنة. متوترة برغم أنني أعرف يقينًا أن أحدًا في الفندق لن يسألها عن وجهتها. هم تعلموا التجاهل والتظاهر بأن كل شيء على ما يرام ..

تسألني وهي تلثمني هل تأخرت، فأقول لها إنها دومًا متأخرة بالنسبة لشوقي حتى لو جاءت قبلي ..

غريب أمر هذا التعلق الذي لا يرتوي أبدًا .. لو كنا متزوجين لكان الملل قد قضى على علاقتنا تمامًا، وعلى قدر علمي لا يمكن لعلاقة أن تستمر بهذا التوهج عامين كاملين، لكني قدرت أن الشوق العاطفي يمتزج هنا بلذة المغامرة والسرقة .. هناك من

يدمنون السرقة، ومصابون بمرض الكلبتومانيا، وأنا اعتقد أن ما نحن فيه نوع من هذا المرض ..

قالت لي:

-«منصور لن يعود قبل يومين .. لربما كانت الفرصة سانحة كي نلتقي غدًا»

منصور هو زوجها مدير المصرف طبعًا، وأنا لم أره قط لكني كونت عنه صورة عقلية معينة من كلامها. وحش فظ ضخم الجثة لا يحبها لكنه حريص على الحفاظ على أملاكه.. لو كان ثور بيسون لراح يبول حولها ليحدد أن هذه أملاكه ..

ابتسمت وقلت لها:

-«للأسف .. زوجتي موجودة في كل وقت، ولديها شكوكها الخاصة .. لن نتمكن من اللقاء أكثر من مرة أسبوعيًا»

-«والنهاية؟»

-«لا نهاية للحب على قدر علمي .. لا يجب أن تكون هناك نهاية. أحيانًا تكون الرحلة أكثر إمتاعًا من الغاية. يومًا ما سيموت زوجك أو أطلق زوجتي، ولربما تزوجنا .. لكن – صدقيني – ستفقد علاقتنا سحر الكلبتومانيا ..»

-«كلبتو ماذا؟»

سحقت السيجارة وصدري يهتز ضحكًا وأطفأت الأباجورة قائلًا:

-«لم نلتقِ خلسة هنا كي ندرس اللغة اللاتينية .. صدقيني»

****

بعد أسبوع جاء شاكر، ورقد على المقعد المريح وراح يحملق في السقف.. بعد قليل قال:

-ـ«في سن العشرين استولى عليّ هاجس الخنق .. كان مشهد أي شخص يُشنق أو يُخنق بحبل يثير اهتمامي جدًا. فكرة الوجه المحتقن واللسان البارز كانت تجعل خيالي يجمح وقلبي يخفق. احتجت لوقت طويل حتى أكتشف شبكة الإنترنت وأدرك أن هناك أشخاصًا مثلي في العالم ..أنا لست منحرفًا!»

لم أستطع أن أمنع نفسي من التعليق فقلت:

-ـ«ليس الموضوع أنك لست منحرفًا .. الموضوع هو أن هناك منحرفين كثيرين! في صباي كنت أحب مذاق الشاي الذي يُذاب مكعب زبد فيه، وكانوا يعتبرونني فاسد الذوق .. فيما بعد عرفت أن هناك حشدًا من فاسدي الذوق»

ليس هذا أفضل ما يُقال لمريض نفسي، لكني لم أستطع الصمت ..

لم يعلق وواصل السرد وحنجرته تتواثب في عنقه كالعادة:

-ـ«كنت بحاجة ماسة لأن أخنق شخصًا ما .. وتعودت أن أحمل هذا الحبل القصير في جيبي طيلة الوقت وأحلم بما يمكن أن أعمله به..»

وفجأة رأيته يمسك في يده بحبل .. حبل أنيق رقيق واضح أنه من نوع ممتاز. حبل لا يناسب أبدًا هذه الخواطر السقيمة ولا تعليق الغسيل. هل يضع هذا المجنون الحبل في جيبه طيلة الوقت؟

-ـ«فلتخف هذا الحبل وأكمل قصتك»

دس الشيء في جيبه في عدم اقتناع، وقال والعرق ينبت على جبهته:

-«بدأتْ غرائزي تخرج للعالم عندما كنت أزور ذلك الصديق في بناية في الزمالك .. لاحظت عندما دخلت أنه لا يوجد بواب ولا رجال أمن وأن المدخل خالٍ تمامًا .. دققت باب صديقي فلم أجده، هكذا استقللت المصعد لأنزل .. بعد طابق واحد دخلت فتاة رقيقة للمصعد وهزت رأسها محيية.. كان ذلك العنق النحيل الطويل يناديني .. يناديني بلا رحمة ..والمصعد بطيء جدًا والوقت متأخر، لم أستغرق وقتًا للتفكير .. هذه فرصة لن تعود. كانت تنظر لكشاف أرقام الطوابق وهي طريقة معروفة لتفادي التقاء العيون في مكان ضيق، وهنا كان الحبل قد خرج .. التف حول عنقها من الخلف ثم رحت أعتصر وأضغط .. أضغط .. كانت تشهق وبرز لسانها كما تمنيت ... أعتقد أن الأمر استغرق طويلًا جدًا .. لدرجة أنني ظللت معها في المصعد لفترة طويلة في الطابق السفلي، واضطررت لضغط الزر بيدي اليسرى الحرة ليرتفع للطابق الثالث .. ومن جديد عدت للهبوط .. كان جسدها قد ارتخى تمامًا وكفت عن الركل والتنفس، وكنت أنا ثملًا بغير خمر. يجب أن أستجمع قواي حتى أهرب .. ليس الوقت وقت نشوة! سرعان ما صرت في الشارع، ومشيت مسافة لا بأس بها ثم استوقفت سيارة أجرة .. لن يتذكر أحد أنه رآني هنا، وصاحبي لا يعرف أنني زرته. الجريمة الكاملة هي أن تقتل شخصًا لم تره من قبل ولم ترسم أي خطة لقتله من قبل. وفيما بعد جمعت كل أخبار هذه الفتاة التي وجدوها مقتولة في المصعد ... كان اسمها رشا بالمناسبة ..

-«مر عام ثم بدأت أشعر بالحاجة لتللك اللحظات النورانية من جديد .. كان علي أن أغير الأسلوب. جربت أساليب عديدة، منها استئجار شقة باسم مستعار واستجلاب بائعة أو فتاة ليل .. وجربت خنق الأطفال مرتين ..»

كنت أصغي له وأنا أرتجف .. أنا أكره هذه المهنة فعلًا. أكره أن يكشف أحدهم غطاء المرحاض لترى الأشياء على حقيقتها. لكنه برغم كل شيء يشعرك بالتفوق وأنك أفضل.. مهما انحدرت فأنت لن تكون وحشًا مثله.

راح يحكي لي مغامراته في تلذذ حتى تجمعت عصارتي المعدية في أسفل المريء. لكن يظل السؤال المهم هو : كيف تزوج هذا المسخ النفسي؟ ولماذا؟

قلت له:

-«كان من الخطر أن تتزوج .. أن تعيش معك امرأة وسط هذه الجحيم ....»

-«التوبة!»

وارتفعت حنجرته وهبطت:

-«تبت .. وعاهدت الله على ألا أخنق شخصًا آخر. لا بد من لحظة يكف فيها المرء عن المجون. لكن تلك الخائنة كانت تخدعني طيلة الوقت .. كانت تلتقي بأحدهم كلما سافرت. لقد رأيت هذا في قدح الحبر وعرفت أن علي أن أعود للخنق!»

واهتز صدره من النشوة وظهرت أسنانه المتآكلة .. وأردف:

-«لا أكف عن تخيل لحظة أن يلتف الحبل حول عنق سوسن ..»

زوجته الخائنة اسمها سوسن .. مصادفة غريبة بعض الشيء ... قدمي تهتز لا إراديًا. اهدأ يا صاحبي .. هو محام واسمه شاكر .. لا علاقة له بسوسنك زوجة منصور مدير المصرف..

٣

قضيت مع ذكريات الأخ شاكر ساعات رهيبة، وهو يقص عليّ تفاصيل مغامراته مع الخنق، حتى شعرت بأنني على وشك الاختناق أنا نفسي. لقد آلمتني حنجرتي من كلماته.
المشكلة أنه لن ينتحر ثانية .. لن يجرب ألعابًا ماسوشية، فقد وجد غايته النهائية في السادية، وهذا يعني أنه ما زال خطرًا داهمًا.
رجل ذو نظارة سميكة وعينين جاحظتين وحبل في جيبه هو رجل لا يدعو للثقة.
كنت أعرف أنني عاجز عن مساعدته .. من العسير أن تعالج الوسواس القهري، فماذا عن سفاح سادي قتل أطفالًا كما اعترف.
لا أجرؤ ولا يسمح ضميري بأن أبلغ الشرطة ضده.
رباه! سوف تكون لحظة سعيدة في حياتي تلك اللحظة التي يكتشف فيها أنني حمار ويتركني. الخلاص منه يحتاج إلى احتفال صغير بالفعل. لكن المصيبة هي أنه يثق بي. يعتقد أنني ساحر. الشعر الأبيض المحيط برأسي يوحي له أنني عبقري. هذا هو تأثير الهالة halo effect الذي يعرفه الأطباء. طبيب تحيط برأسه هالة من شعره أبيض هو طبيب يعرف كل شيء، وقد عقد معاهدة مع الموت!

في الأيام الماضية قرأت خبرًا في جريدة عن طالبة في مدرسة ثانوية، وجدوها مخنوقة وملقاة في زقاق في الضاحية القاهرية (...). لم تكن هناك سرقة ولم يكن اغتصاب. قضية غامضة جدًا .. علامات حبل على العنق. كنت أنا أدرك على وجه التقريب ما حدث .. أعرف من الفاعل وكيف فعل، ولماذا فعل..
شاكر عندما جاء لعيادتي رقد وأغمض عينيه، وراحت تفاحة آدم تصعد وتهبط كأن لها حياة خاصة. سألته بعد قليل:
-«هل مارست الخنق مؤخرًا؟»
نظر لي وابتسم .. ثم أبعد عينيه، فأردفت:
-«طالبة ثانوي .. زقاق في (...)»
ابتسم من جديد دون أن ينظر لي .. الإجابة وصلت يا ابن الـ (...) .. وصلت كاملة. إذن أنت لا تتحسن..
لو كان بيدي لحقنته بسم في عنقه وأرحت المجتمع، لكن هذا ليس عملي للأسف..

****

منذ فترة لا بأس بها عرفت سوسن. كانت من مريضاتي وقد جاءت للعيادة تشكو اكتئابًا مزمنًا. مع تداعي المعاني عرفت أنها تعاني إحباطًا شديدًا .. إحباطًا عاطفيًا لا بأس به بسبب انصراف زوجها عنها. كانت جميلة بحق .. سوسن تبدو كالسوسن ولها عبير السوسن، وقد بدا لي أن زوجها – الذي قالت ان اسمه منصور – أحمق بالتأكيد. لكن مقولة (ما أقبحك حلالًا وما أحلاك

حرامًا) تتكرر في كل مرة. لا أعرف متى لثمت يدها بلا مقدمات وهي تتكلم، فتبادلنا النظرات وتلاقت عينانا .. ثم ..
بعد هذا كان لا بد من أن نجد مكانًا، وكان ذلك الفندق الذي اعتدت أن أستأجر غرفة فيه كلما جاءت الفرصة. الفرصة هي أن يسافر زوجها، وهو يفعل ذلك مرة كل أسبوع. وفي تلك الليلة لا بد أن أجد كذبة مقنعة تقنع ثريا. أحيانًا أزعم أنني سأبيت بالمكتب، وأحيانًا أقول إنني سأتأخر وهذا معناه أن أرجع قبل الشروق..
في تلك الليلة قالت لي وهي تعبث في شعري الأبيض:
-«هل تعتقد حقًا أن زواجنا مستحيل بسبب الكلبتومانيا؟»
حقًا هذا ألعن شيء يقال لي .. بالطبع لا زواج. لو تمسّكتْ برأيها فهي النهاية. لم أرتوِ منها بعد لكن يمكن للمرء أن يجد زجاجة خمر أخرى.
نظرت لها متسائلًا فقالت:
-«لم أعد أتحمل الحياة مع منصور..»
-«ما الجديد؟»
أخذت شهيقًا عميقًا وقالت
-«أعتقد أنه جن .. أعتقد أنه جدير بأن يكون بين مرضاك»
-«كيف جن؟»
تحسست عنقها وقالت:
-«هل هناك أناس يعشقون الحبال؟ إنه يعلق الحبال في كل مكان! الأهم أنني أراه في بعض الأوقات ينظر لعنقي في نهم ويسيل اللعاب من فمه!»
نهضت متوترًا ثم اعتصرت كتفيها وهززتها بقوة آلمتها:
-«زوجك لا يدعى منصور .. أليس كذلك؟»

قالت في رعب:

-«بلى ... »

-«وليس صاحب مصرف .. هو محام .. أليس كذلك؟»

-«بلى .. كيف عرفت؟»

اسمه شاكر .. محام .. لا شك في هذا. لقد كانت تكذب علي منذ البداية على سبيل التمويه، أما هو فقال صدقًا على طول الخط. أمرتها في عصبية أن تبدل ثيابها وترحل. على الأرجح لن نلتقي ثانية .. لم تفهم وظلت تنظر لي في دهشة وأنا أرتدي السترة وأنتعل الحذاء، وأغادر الغرفة فورًا.

****

يجلس شاكر أمامي وهو ينظر للسقف كعادته .. ربما لأنه يعرف أن الناس ينظرون للسقف عند الأطباء النفسيين..

إذن هو يعرف على الأرجح كل شيء عن علاقتنا أنا وسوسن .. ربما هو الحبر أو الأقاويل .. المهم أنه وصل للحقيقة. افتراض أن هذه صدفة أمر مستحيل. إذن ماذا ينتظر؟ لماذا لم يلف الحبل حول عنقي وينتهي كل شيء؟ إن انفرادنا يتكرر.

على طريقة الاختيار المتعدد في الامتحانات.. هناك أربعة تفسيرات معقولة:

التفسير الأول هو أنه يعرف أنه سيقع في يد الشرطة ويُعدم لا محالة، إذا فعلها في عيادتي، وهناك أكثر من شاهد على تواجده. ربما كان يبحث عن فرصة آمنة.

التفسير الثاني هو أنه يلعب معي لعبة القط والفأر ويطيل لذة الانتظار.
التفسير الثالث هو أنه يأمل في أن أقدم له الشفاء، باعتباري متخصصًا في علم نفس الجريمة. أي أنه يريد أن يجمع بين الشفاء وقتلي.
ربما هذا كله .. السبب خليط من كل التفسيرات.
أنا أميل لهذا الاحتم
ال الرابع. لكن المشكلة هي أنني لن أتمكن أبدًا من علاج هذا الرجل، أو الجلوس معه في غرفة مغلقة.. شاكر يجب أن يموت. موته سوف يجلب لي الأمان، وسوف يحقق للبشرية خدمة أكيدة كالخلاص من وباء التيفوس.
فكرت قليلًا ثم قلت له:
-«أستاذ شاكر .. حان الوقت لتجربة طريقة جديدة للعلاج. أنا أريد وضعك في الظروف المناسبة للخنق بالضبط .. وسيكون عليك أن تقاوم رغبتك هذه. سيتم ذلك تحت إشرافي الكامل».
-«كيف؟»
كتبت له عنوانًا على قصاصة ورق .. مخزن ورق مقوى قديم مهجور في إحدى الضواحي. سأكون هناك في العاشرة مساء الغد .. وسوف يكون هو كذلك هناك. معًا سوف نقاوم تلك الرغبة الجنونية التي سيشعر بها .. سوف أعلمه كيف يحرق الحبل الذي يضعه في جيبه، ولا يخنقني..
نظر لي بوجه مغلق ولم يقل أي شيء. فقط غمغم:
-«هذا خطر داهم ..»
-«لا تقلق .. أنا أعرف ما يجب عمله»

لو كانت الأفكار تظهر في بالون كما في القصص المصورة، لرأيت فوق رأسه بالونًا يظهرني محتقن الوجه بارز اللسان والحبل حول عنقي.. أعرف ما يفكر فيه جيدًا.

****

غادر شاكر مكتبي فانتظرت قليلًا... ثم فتحت شاشة الكمبيوتر ورحت أفتش في الملفات القديمة .. ملفات المرضى السابقين .. هذا هو .. بعد قليل اتصلت بنشأت زاهر .. المهندس الشاب.. جاء صوته يتساءل عن سبب اتصالي، فهذه أول مكالمة بيننا منذ عامين..

قلت له:

-«هل ما زالت تلك الرغبة العارمة تعصف بك؟ أنا سأحقق لك مرادك بالحرف .. فقط تعالَ لعيادتي ظهر غد. سأشرح كل شيء وسأطلب منك أن تذهب لمكان معين في العاشرة مساءً. مخزن ورق مهجور وطبعًا معك ما يلزم»

صاح في لهفة :

-«حقًا! هل تمزح؟ هل تخدعني؟»

-«لا أستطيع شرح المزيد هاتفيًا .. فقط تعالَ ظهرًا»

هذه مزية أن تعمل في علم نفس الجريمة. أنت تقابل الكثيرين. نشأت من مرضاي الذين يتعذبون طيلة الوقت.. نصحته بالصبر والتحمل لفترة طويلة، لكني اليوم أمنحه الفرصة كاملة. من الوساوس القهرية الغريبة، تلك الرغبة الكاسحة التي تجعله يتمنى

أن يذبح قاتلًا من الأذن إلى الأذن. كانت مشكلته الأساسية هي أنه لا يجد قتلة بما يكفي. إن ما أقوم به اليوم هو أدق وصف لتعبير: قتل عصفورين بحجر واحد. ألا ترى هذا معي؟

تمت

معرض الموت

١

لا يجب أن نخلط الوقائع ببعضها، فالمصادفات تحدث أحيانًا، ولا نريد أن نصل إلى استنتاجات غير ناضجة كما تعلم..
في الصباح عندما يدخل حارس المقبرة يجول بين شواهد القبور، في ذلك الجو البارد الذي يجتاح نيو إنجلند مؤخرًا، وقد بدأت طبقة الجليد الرقيقة تغطي الأرض. البخار يتصاعد من فمه وتلك الرجفة اللطيفة الخفيفة التي يعشقها.
لكنه رأى المشهد من بعيد .. رأى كيف يختلط الجليد مع الوحل الذي خرج من المقبرة. يهرع إلى هناك وتنزلق قدمه على الجليد الأملس ثم ينهض من جديد.
هذه مقبرة آل روبنسون وهي من المقابر الجميلة هنا، وقد اعتنت بها أسرة رؤوم لا تنسى موتاها. لكن الأمور لم تعد كما كانت..
يمكنك بسهولة أن تدرك أنه تم حفر المقبرة بعناية .. لماذا؟ كي يخرج أحدهم جثة بالطبع..
المقبرة خالية بالفعل، وقد كانت تخص امرأة اسمها (دوروثي سمارت) توفيت منذ أسبوع. من الغريب أن تتصور أن هناك من جاء ليلاً ومارس أعمال الحفر على ضوء كشاف واهن في هذا الصقيع .. كل هذا دون أن يشعر به أحد..
لماذا يسرق أحدهم جثة؟
حفر القبور وسرقة الجثث body snatching تراث (ثقافي) مهم لدى الغربيين، وبالذات لدى البريطانيين. المشهد الخالد

لحفاري القبور الذين يعملون في الظلام على ضوء كشاف.. بالطبع لابد أن يكونوا ثملين. السبب الأول لشرب الخمر هو بشاعة المهمة وقذارتها .. السبب الثاني هو البرد الشديد الذي يحتاج لقطرات خمر في دمهم. في فترة من الفترات تحول الأمر إلى وباء، وبالطبع لم تكن تُسرق سوى قبور الفقراء. يعملون بعصا خشبية حتى لا تسبب الفئوس ضوضاء. تتم سرقة الجثة، والهدف في ذلك الوقت هو إشباع الحاجة التي لا ترتوي للجثث لدى طلبة الطب. كان علم التشريح يزداد أهمية في ذلك الوقت.
هناك قصة غريبة عن فتاة حسناء تمت سرقة جثتها في القرن التاسع عشر ليرسم الفنانون جثتها العارية، وقد ظلت الجثة تُستخدم كموديل لشهر كامل قبل أن تتحلل. هذه اللوحات موجودة حتى اليوم. وقد نصحت الصحف قراءها وقتها أن يؤجلوا دفن جثث أحبائهم إلى ما قبل التحلل حتى لا تكون ذات نفع لنابشي القبور.
في عصرنا هذا يختلف الأمر نوعًا .. سرقة القبور تتم ضمن طقوس دينية معينة، أو بغرض مثل التهام الموتى .. هناك جثث تم إخراجها من القبور في لندن، وغرست أوتاد في صدورها بدعوى أنها جثث مصاصي دماء.
دارت هذه الخواطر في ذهني وأنا أقف مع رجال الشرطة أراقب الموقف. بالفعل توجد آثار جر على الثلج، ويبدو أن هناك من حمل الجثة إلى سيارة تقف خارج المقبرة. على الأرجح لم يكن وحده..
هذه مصيبة لدى الكثيرين، وبالتأكيد عبء على رجال الشرطة وتهديد بالفشل، لكنه بالنسبة لي موضوع شائق بالغ الأهمية .. هل هناك خيط يمكن الإمساك به؟

****

بعد يومين تم نبش مقبرة أخرى. هناك جسد تم جره وتركوا التابوت مفتوحًا ببطانته المخملية التي اكتست بطبقة ثلج رقيقة. كانت السناجب تتواثب فوق الأشجار التي تحيط بالقبر، عندما وقفت أنا والمفتش جارفيلد ندخن ونتكلم. هو يعرف كل شيء عن كتابي (نكروفيليا) ويعرف أنني ألاحق هذه الحوادث في كل مكان. ما لا يعرفه المفتش هو أنني وجدت شيئًا احتفظت به لنفسي. كانوا يلتقطون الصور ويفتشون المكان، عندما وجدت تلك القصاصة الصغيرة جوار ممر الجليد. أدركت على الفور أنه رقم هاتف تمت كتابته على عجلة بخط رديء. يسهل استنتاج ما حدث. الذي حفر القبر لم يكن يلبس قفازين أولاً، ثم مد يده في جيب معطفه ليخرج القفاز، وسرعان ما طارت هذه القصاصة .. دسستها في جيبي قبل أن يلاحظ أحد.

قال جارفيلد:

- «الصحافة لم تهتم بالحادث الأول، أما مع الحادث الثاني فلسوف نكون قطعة لحم تُرمى للكلاب. هم في حاجة ماسة لشيء يسودون به صفحاتهم، وقد وجدوه»

قلت وأنا أنفث الدخان:

- «ما زال من السهل أن تحكم مراقبة المقابر. ليس من السهل أن ينبش أحدهم مقبرة ويسرق جثة وينجو في كل مرة. لابد من أن يفتضح أمره .. يكفيك حارس ليلي في كل مقبرة»

- «أنا أعرف عملي»

ملت نحوه وسألته في لهفة:

- «هل تخفون عني شيئًا؟ .. أنا بصدد كتاب وليست مقالة في جريدة. أي إنني لن أذيع شيئًا»
ألقى بلفافة التبغ في الثلج لتصنع حفرة صغيرة وهي تغوص. ثم قال:
- «عد لبيتك يا ويليام .. حتى لو عرفت شيئًا فهو مفيد للتحقيق ولن يذاع..»
ثم نظر في عيني وقال:
- «مهنتنا تعلمنا الشك .. كيف أضمن أنك لست من فعل هذا؟»

****

قلت لجين وأنا أصب لنفسي كأسًا من المارتيني:
- «تصوري .. يقول إنه من الوارد أن أفعل هذا ..»
ضحكت جين حيث جلست تراقب التليفزيون، وقالت:
- «كل من يهتمون بالنكروفيليا هم في قائمة الاتهام»
قلت في عصبية:
- «لو كتبت عن جرائم القتل فلا يعني هذا أنني قاتل .. لو كتبت كتابًا عن الأورام فلا يعني هذا أنني خلية سرطانية»
- «الرجل يؤدي عمله على كل حال»
- «أنت تعرفين يقينًا أنني لا أغادر البيت بعد العاشرة ليلاً أبدًا .. على الأقل مؤخرًا. أمقت البرد وأحب عملي»
- «وتمقت الضيوف كذلك»
تركتها ورحت أفتش عن صاحب الرقم الذي وجدته فظهر لي اسم (ماكس برودسكي).. بحث سريع على شبكة الإنترنت أظهر أن ماكس برودسكي مصور..

ماكس برودسكي... يبدو لي الاسم مألوفًا....ثم بدأت أتذكر...ألبوم وقع في يدي منذ عامين، وكان لفنان تصوير يبدو أنه من أوروبا الشرقية .. معظم الألبوم كان يمثل موديلات حسناوات في ثياب هفهافة شفافة، وقد اتخذن أوضاعًا أقرب للموت .. بعضهن كن نائمات في توابيت، وبعضهن مالت رؤوسهن إلى جنب كأنهن مشنوقات. بعض الصور كانت تظهر جثة طافية فوق صفحة المياه على طريقة لوحة أوفيليا الشهيرة... كان هذا الألبوم جنة لمن هم مولعون بالموت ..

فتشت في شبكة الإنترنت عن صفحة الفنان، فوجدته .. لم أعتد قط أن أشعر براحة تجاه الرجال الذين يطيلون شواربهم ليوصلوها باللحى.. تشعر بتأثير شيطاني معين في الوجه، وما يزيد الطين بلة أن يكون الرأس أصلع حتى يقترب في ملامحه من لافي صاحب كنيسة الشيطان.

هذا وجه مناسب جدًا ... ومادة دسمة لكتابي لم أفطن لها من قبل.

الأهم هو أن تجد رقم هاتف هذا الرجل بالذات جوار قبر منبوش.

لا أعتقد بالطبع أن الناس يمشون حاملين أرقام هواتفهم في جيوبهم، لكن من الوارد جدًا أن يكون من نبش القبر مرسلاً من ماكس، وكان يحمل الرقم في جيبه.

دخلت إلى مكتبي وأمسكت بالرقم وضغطت على مفاتيح الهاتف.

٢

كان هذا هو الموعد. قلت لجين إنني سأقابل ذلك الرجل المريب في التاسعة مساء. قالت إنني أضيع وقتي مع المخابيل، لكن

الإجابة كانت حاضرة قاطعة: أنا أجري بحثًا علميًا. طلبتْ مني أن أرتدي ثيابًا ثقيلة نوعًا، الجو بارد حاليًا خاصة في الليل. أمقت أن أعامل كطفل لكني فعلت ذلك.

يقيم برودسكي في بيت كبير في إحدى ضواحي فيرمونت .. هذا هو العنوان الذي ذكره لي.

كان البيت يبدو جديرًا بإحدى قصص ستيفن كنج. لا تنس أننا قريبون من ولاية مين جدًا .. بانجور مين حيث تقع معظم قصص ستيفن كنج المرعبة.

طبقة جليد خارج البيت .. يمكنك أن تدور حوله لترى المرآب وفيه سيارة عتيقة غلف عجلاتها بالجنازير. يمكنك أن ترى رفشًا وفأسًا و.. أشياء تصلح جدًا لنبش مقبرة، لكنها كذلك قد تكون بريئة .. ثم من قال إنه يفعل هذا؟ لقد استنتجت أنه كلف واحدًا آخر بهذا ..

قرعت الباب فانفتح لأرى ذلك الوجه الذي أمقته. أنطون لافي تقريبًا .. رأس أصلع ولحية متصلة بالشارب تحيط بفم مزموم بعصبية. هذا الرأس يطل من ياقة بول أوفر سميك. لو قرر الشيطان التجسد فلن يسعفه خياله بصورة أفضل ..

قلت له في أدب:

-«مستر برودسكي .. أنا ويليام جولدمان .. اتصلت بك بصدد ...».

-«لوحاتي الفوتوغرافية .. أعرف هذا ..».

هكذا وجدت نفسي في بيت واسع مريح. هناك كلب لبرادور جميل يتواثب من حولي. هناك مكتب من طراز عتيق .. أنا لا

أفهم في طرز الأثاث لكن أحسبه ثمينًا .. هناك مدفأة .. هناك مكتبة، وهناك عشرات الصور الفوتوغرافية لموديلاته الميتات ..

صبّ لي كأسًا من الشراب، وقال وقد لاحظ نظراتي:

-«كل موديلاتي من أوروبا الشرقية من حيث جئت .. ثمة سحر معين في النساء في تلك البقعة. الجمال الثلجي البارد الشمعي الذي يوحي بالشهوة ويوحي بالقسوة ويوحي ببرودة الموت .. يمكنك أن تتخيل كل فتاة في هذه البلدان وقد صارت مصاصة دماء».

قلت في انبهار:

-«هذه لوحات مذهلة .. الرسم بالكاميرا بالمعنى الحرفي، لكني لم آت من أجل الفن».

وضع ساقًا على ساق وربّت على رأس الكلب:

-«زيارة لفنان تصوير من شخص لا يبالي بالتصوير .. هل لي أن أفهم؟».

قلت في حذر:

-«أكتب كتابًا عن النكروفيليا .. لدي مراجع عديدة، لكني لاحظت افتتانك بالموت وقررت أن آخذ آراءك كمرجع ...».

-«حقًا أنا مفتون بالموت ولهذا قصة طويلة ..».

ثم قال وهو يضع الكأس وينهض:

-«هناك معرض صور مذهل في القاعة المجاورة .. كلها صور أصلية دفعت فيها مبلغًا هائلاً من المال .. لا يفعل هذا سوى عاشق حقيقي للموت».

الكلب يتواثب حولنا وأنا أمشي خلفه إلى القاعة التي ذكرها.

هنا فهمت على الفور ما يتكلم عنه.

في العصر الفكتوري انتشرت عادة شنيعة لدى الناس، خاصة مع كاميرات داجير البدائية. كل أسرة تفقد واحدًا من أفرادها تقوم بإلباس هذا الشخص ثيابًا عادية يومية، مع فتح عينيه الميتتين، ثم يجلس أفراد الأسرة حوله كأنها صورة عائلية هادئة. هذا هو تعبيرهم عن حبهم للمتوفى الذي يريدون أن يظل معهم للأبد.

النتيجة هي مجموعة شنيعة من الصور لأشخاص ميتين يجلسون بين أحياء، ومن الصعب أن تصدق أنهم موتى. إن الإنترنت يعج بهذه الصور، ولسوف تلاحظ علامة مهمة هي أن الأحياء تبدو صورتهم مهزوزة بينما الميت تبدو صورته واضحة حادة التفاصيل. في ذلك العصر كان عليك أن تبقى أمام الكاميرا نصف ساعة بلا حراك حتى لا تكون صورتك مهزوزة. بالطبع يتحرك الأحياء مع التنفس بينما الموتى لا يتنفسون. هناك قصة من هذا النوع مع الصورة الرئاسية الشهيرة لأبراهام لنكولن. كان قد وضع ساقًا على ساق وظل أمام الكاميرا نصف ساعة. لاحظ المصور أن ركبة لنكولن مهزوزة في الصورة. تبين السبب فيما بعد وهو أن ركبة لنكولن كانت تهتز طيلة الوقت؛ لأنه كان مصابًا بارتجاع في صمام الأورطي، وهي العلامة التي سماها الأطباء فيما بعد (علامة لينكولن).

كل الصور المعلقة أصلية تبدو عليها مخالب الزمن .. صبغة الأيام البنية المصفرة والتجاعيد. صحيح أنها لوحات محمية خلف إطار زجاجي، لكن الزمن أقوى بالطبع. عندما تتصور أن هذه الفتاة الرقيقة الجالسة بين أبويها ميتة، وأنها لن تلتقط أي صورة أخرى معهما، أو أن هذا الطفل الضاحك على حجر أمه قتلته الدفتريا ولن ترى وجهه بعد اليوم. عندما ترى هذه الصور

ترتجف رعبًا .. لها تأثير مقبض عجيب، والحمد لله أن هذه العادة قد انقرضت ..

لكن برودسكي قد استطاع الحصول على مجموعة مذهلة .. لابد أنها لا تقدر بثمن ..

قلت له في افتتان:

-«أنت ثري جدًا».

قال في لا مبالاة:

-«عندما يتسلط عليك وسواس فأنت تبذل المال رخيصًا من أجله. كل هاوي صور قديمة في العالم يعرف أنني أشتريها بسعر باهظ».

-«هل تسمح لي بأن ألتقط بعض الصور لاحقًا؟».

لم ينظر لي .. فقط غادر القاعة وأنا خلفه وهو يقول:

-«بالطبع لا .. هذه صور أصلية وحساسة للضوء جدًا .. كل المتا

حف المحترمة لا تسمح لك باستعمال الفلاش في التقاط صور محتوياتها. كادوا يفتكون بي في متحف الأرميتاج لأنني حاولت».

عندما عدنا لقاعة الجلوس كنت أشعر بانقباض هائل في صدري بعد رؤية المعرض الرهيب. لابد أن هناك خمسين صورة من هذا الطراز عند الرجل.

جلست على أريكة وتأملت المكان من حولي .. هناك رف رصت عليه شرائط فيديو وأقراص مدمجة. هناك جهاز فيديو في الركن. كل جهاز فيديو صار عتيق الطراز بعدما انقرض هذا الاختراع أصلاً. لكن عناوين الأفلام تدعو للتأمل: وجوه الموت – موندو – إلخ ..

أي أنها تلك الأفلام شبه التسجيلية التي تجمع لقطات حقيقية للحظات موت ناس .. لحظات بشعة على الأرجح مثل رجل تلتهمه الأسود أو رجل يمزقه قطار ..

ترى أين يحتفظ بمجموعته من الأطراف المبتورة من جثث؟ بل أين يضع الجثث نفسها؟.

يجلس بردودسكي أمامي وهو يداعب عنق كلبه، والكلب يزوم في مزيج من الاستمتاع والتهديد لي..

هذا رجل فريد .. هذا هو الرجل الذي أحتاج لوضعه في كتابي ..

النقطة الثانية المهمة، هي أنه لو كان في الولايات المتحدة كلها رجل ينبش القبور ويخرج منها الجثث، فلابد أنه هذا الرجل ..

٣

عدت للبيت فأخرجت طعام العشاء من الثلاجة. وجلست ألتهم طعامي. جاء صوت جين التي صحت من نومها تسألني عما هنالك. قلت بفم مليء بالطعام:

-«أنا هنا يا ملاكي.. لا تقلقي»

ثم أنهيت طعامي فصببت لنفسي بعض الشراب وعدت لها حيث جلست في غرفة الجلوس تراقب التلفزيون. سألتني دون أن تنظر لي لانهماكها مع مسلسل سخيف:

-«كيف الحال؟»

قلت في حماسة:

-«رائع.. لو أن إد جين الذي كان يسلخ النساء ويصنع من جلودهن عباءة عاد للحياة فلن يكون سوى هذا الرجل!»

-«هل ثمة علامات على أنه من ينبش القبور؟»

-«لا علامات مباشرة. لكن اهتمامه بالموت مريب. كل العلامات تشير إلى أنه هو الرجل. لا بد أن ألتصق به لفترة»

قالت في استبشاع:

-«لا أعتقد أنها صداقة محببة.. هي كذلك خطرة»

قلت في إصرار:

-«هذا كتاب علمي.. من يكتب كتابًا عن الدرن لا بد أن يقضي وقته وسط مرضى الدرن.. لن يذهب لينعم بالهواء الطلق في الكاريبي ويكتب كتابه».

ثم طلبت منها أن تصمت.. لا أحب إطالة الجدل. هذا عملي في النهاية وشأني الخاص.

****

وكيف لي أن أعرف أن مايكل سيرل كان قد بلغ ذروة تحمله في ذلك الوقت؟ لقد صبر لفترة طويلة، لكن كل يوم كان يفقده صبره أكثر..

هناك كان يجلس في سيارته الليكساس يراقب البيت من بعيد. وأثار دهشته أن نفس الرجل الغريب صار يتردد على البيت في نفس الساعة من كل يوم، وهو يعرف يقينًا أن صاحب البيت لا يزوره أحد.

ما زالت الذكرى تطارده..

المهندس الناجح مايكل سيرل والأسرة الهادئة الجميلة. زوجته بيتي وطفله بيلي والكلب اللطيف والحديقة وأعياد الشكر والكريسماس.. الغد ممتد للأبد كطريق تحفه الورود. كان يوقن أنه من القلائل المحظوظين الذين هزموا الخوف.

اضطررته ظروف السفر إلى قضاء أيام في كاليفورنيا. بعد أيام عاد إلى بيته الجميل..

منذ اللحظة الأولى شعر بدهشة لأن الكلب لم يخرج للقائه.. فتح الباب فلم يخرج بيلي للقائه.. في الداخل لم تأت بيتي للقائه.. أين ذهب الجميع؟

دخل متوجسًا إلى غرفة الجلوس فرآهم. بعد أن ظل يصرخ لربع ساعة اتجه إلى الهاتف ليطلب الشرطة. واكتشف أنه بلل سرواله لأنه لم يعد يتحكم في عضلاته العاصرة..

لم يكن المشهد شنيعًا.. كل واحد منهم قتل برصاصة رقيقة أنيقة في القلب. كأن من قتلهم لم يرد أن يفسد شيئًا. ثم تم وضعهم في المقاعد بشكل أنيق ليبدو كأن بيتي مسترخية والطفل على حجرها، ودارى مواضع ثقوب الرصاص بشريط لاصق ملون. حتى الكلب تم وضع دعمات لتجعله كأنه قابع على السجادة وقد رفع رأسه وخرج لسانه في مرح. تمت خياطة الجفون لتظل مفتوحة. قال المحقق إنه من الواضح أن الجريمة تمت أمس لأن الجثث بحالة ممتازة.

لماذا؟ لماذا يعمد القاتل إلى وضع قتلاه في هذا المشهد العائلي المبهج؟

احتاج الأمر لشهر في المصحة وأطنان من المهدئات إلى أن استعاد روعه. هذا ما عرفته فيما بعد.

ظلت علامات الاستفهام تحوم حول هذا اللغز إلى أن رأى صورًا فكتورية للموتى. تلك العادة الكريهة التي انقرضت لحسن الحظ. هنا أدرك أن الموتى يجلسون في أوضاع شبيهة جدًا بأوضاع أسرته التي ماتت عليها.

ظلت علامات الاستفهام تحوم في ذهنه، إلى أن رأى صورًا معاصرة لموتى. تمت معالجتها لتبدو فكتورية، لكن الثياب والملامح وتصفيفات الشعر عصرية جدًا.. هناك مجنون قرر أن يعيد هذا التقليد الفكتوري. كان هذا موقع إنترنت صربي يبيع لوحاته الرهيبة هذه، زاعمًا أن لديهم مصورًا عبقريًا يعيد استنساخ تلك الصور العتيقة. اتصل بالموقع وعرض شراء بعض اللوحات...

عندما حصل على نسخ مكبرة من هذه الصور راح يدرسها بعناية.. أدرك على الفور أن هؤلاء الموتى معاصرون جدًا. ثم أن هناك علامة يعرفها.. الأحياء تكون صورهم مهتزة في تلك الصور بينما تكون صور الموتى ثابتة محددة لأنهم لا يتنفسون. هنا في هذه الصور يبدو كل شيء ثابتًا محددًا.. أي
أن كل من في الصورة موتى. السبب واضح. لا يوجد في عصرنا هذا من يرغب في التقاط صورة جوار موتاه. كل من في هذه الصور موتى..

أو ربما هم مقتولون..........؟

صار كذلك على ثقة بأنه لو انتظر وفتش جيدًا فلسوف يجد صورة أسرته. لو لم ينشرها المصور فهي ضمن مجموعته الخاصة..

ترى هل الموقع متورط؟ بالطبع لا. لا يوجد موقع إنترنت ينشر صور أشخاص قتلهم. على الأرجح يبيع المصور صوره زاعمًا أنها أوضاع تمثيلية فنية..

اتصل بالموقع بريديًا، وتظاهر بأنه صحفي يريد إجراء حوار مع المصور العبقري، فجاءه الرد بالبريد الالكتروني:

-«يسرنا أن أعمال الفنان ماكس برودسكي قد راقت لك. ويسرنا كذلك أن نخبرك أن المصور العبقري يقيم في الولايات المتحدة في فيرمونت. لإجراء حوار يمكنك الاتصال به على رقم.......................».

ماكس برودسكي؟ صار على يقين أنه سيجد صورة أسرته القتيلة عند الفنان المزعوم. وهكذا يكون قد عرف القاتل.. أما عن سبب القتل فهو – ببساطة – لأنه مجنون.

استطاع أن يعرف عنوان ذلك البيت في ضواحي فيرمونت. وأمضى بضعة أيام يراقب المكان. يمكنه أن يدرك أن هذا الفنان مريب يتلقى زيارات عجيبة. لا يمكن أن يكون هؤلاء الزائرون موديلات. هم يبدون كاللصوص أو رجال العصابات، أما الفنان نفسه فيبدو وغدًا..

ليس المسدس.. يريد ميتة عنيفة دامية للرجل، لهذا ابتاع بلطة ومجموعة من المدى وكماشة لانتزاع الأظفار، لكن المرء لا يقتل رجلًا آخر لمجرد شكوك باهتة كهذه..

هو بحاجة إلى أن يجد صورة أسرته في بيت ذلك الرجل الكريه..

هو بحاجة إلى الدخول والتفتيش....

٤

للأسف لا يملك المرء قدرة الرواي العليم بكل شيء في القصص. لهذا لم استطع وقتها أن أعرف باقي تفاصيل هذه القصة. كنت أعود لجين العزيزة فأكلمها عن برودسكي، ثم أتناول عشائي، وأمضي الليل في وضع فقرات جديدة من كتابي ..

قالت لي جين في أسى:

-ـ«لم تعد تهتم بي تقريبًا ... لقد استحوذ الكتاب عليك»

قلت لها إنني أكره تلك اللحظة التي يقلن فيها كلهن نفس الشيء لأزواجهن. كل زوجة تتوقع أن يدور الزوج حولها حاملاً البخور، ثم يلثم قدميها ويقعي ككلب ..

قالت لي إنها تحلم بأن تظفر بصحبة في هذا البيت الكئيب . لماذا لا ننجب ؟ . قلت لها إنني سأجلب لها صحبة بالتأكيد . الحق إن عاداتي تغيرت .. كنت لا أغادر البيت بعد العاشرة مساء أبدًا، فصرت أغادره كثيرًا ..

الحقيقة أن برودسكي ومعرضه الغريب استحوذ على تفكيري فعلاً.

ما لم أعرفه هو أن جماعة (ريبيرث) كانت في حالة عارمة من الغضب والضيق. وأنت تعرف أنهم خطرون ..

****

بدأ كل شيء امام ذلك القبر المنبوش في إحدى المقابر المجاورة. تلك الأماكن الكئيبة المكسوة بالجليد والشواهد التي يتدلى منها الثلج.

هناك وقف هؤلاء الأربعة ينظرون لقبر (آلان رادكليف) غير مصدقين. ثمة وغد ما قد جاء ليلاً ونبش المقبرة وسرق الجثمان. كانوا قد سمعوا عن جرائم مماثلة في الفترة الماضية لكن لم يجل بخاطر واحد منهم أن يحدث هذا لآلان ..

قال مارك وهو يضم المعطف الأسود إلى جسده ويرتجف من البرد. كان فارع القامة له عينان وساعتان محاطتان بالسواد تذكرانك بعيني الراكون :

-«الأمر جد خطير .. فلنعد ونتكلم عندي»

وفي خفة عاد أربعة الرجال إلى السيارة، وانطلقوا قاصدين بيت مارك الذي حوله لدار عبادة خاصة بهم. إن حرية العبادة مكفولة عندنا في الولايات ويمكنك أن تؤكد أن دينك يحتاج لوجود تماسيح في دارك، ليسمح لك رجال الشرطة بذلك. لكن جماعة (ريبيرث) كانت تؤمن بالسرية وبأن دينهم ليس للتبشير. لا نريد أتباعًا .. دعني أعترف لك أن طقوس عبادتهم كانت وحشية أو شبه وثنية في لحظات بعينها. خليط عجيب من المانوية والبروتستانتية وعبادة الشيطان. خليط لا يخرج إلا من عقل مخبول. والمخبولون – كما تعلم – لهم تأثير قوي عبر التاريخ .. إنهم يجيدون خداع الناس دائما.

لكن عقيدتهم هذه كانت تقضي بأنهم يجب أن يخرجوا زعيمهم من القبر ويحنطوه ويحتفظوا به للأبد. مات آلان رادكليف زعيمهم ومؤسس الحركة بالسرطان منذ أيام، وقد هرعوا جميعًا لقبره وهم يحملون أدوات الحفر لإنقاذ دينهم . هنا اكتشفوا أن وغدًا ما سطا على المقبرة قبلهم.

توقفت السيارة وسط الأشجار، ثم هتف مارك وهو يرفع قلنسوة السترة (أنوراك) لتغطي رأسه وأذنيه:

-«سوف نتحرك ياشباب .. معلوماتي انه يعيش وحده»

هتف أحدهم وهو يشير لسيارة ليكساس تقف بعيدًا وسط الأشجار:

-«من هذا ؟ هذه ليست سيارته .. يخيل لي أنه متلصص مثلنا»

-«لو كان ضيفًا فهو حظه العاثر .. سنجده في الداخل، وليكتشفن أنه الشخص الخطأ في المكان الخطأ ..»

وفي بطء بدأ الرجال يتسلحون ويتأهبون للتحرك ...

الليل يرخي ظلاله ، وهذا سيجعل الأمور اسهل بالتأكيد ..

لا تقلق أيها الأخ رادكليف. لن تمر الليلة إلا ومومياؤك في معبدنا.

٥

هناك دائمًا نافذة قبو صالحة للاقتحام في هذه البيوت. كل بيوتنا حصون مفتوحة لمن يريد الدخول، وقد استطاع أعضاء جماعة ريبيرث أن يدخلوا...

كان هذا قبوًا.. الثلج يتكاثف على زجاج النافذتين الصغيرتين، لكن واحدة منهما تهشمت. وعبر الزجاج المهشم تسلل الرجال واحدًا بعد الآخر.

لم يهتم.. كان يريد أن يواصل الكلام:

-«كان ألماني المولد لكنه يعيش في فلوريدا، وكان يعشق زوجته الكوبية إيلينا ميلاجرو، فلما توفيت بالدرن تسلل لقبرها بعد شهرين، وسرق جثتها وعاد بها لبيته.. وعاش معها.. عندما سقط جلدها أصلحه، وعندما سقط شعرها صنع لها جُمّة منه.. وكان يسكب عليها العطور والمطهرات ليخفي رائحتها. ظل معها سبعة أعوام كاملة حتى انكشف أمره ودفنوها. أعتقد أنك تعيد نفس قصة تانزلر. أنت عشت هنا عدة أعوام تكلم جثة متحللة محنطة، وتكتب كتابًا غامضًا عن النكروفيليا وتزور أشخاصًا غامضين»

يريد إقناعي أن جين ميتة وأن كل كلامها معي كان وهمًا في ذهني.. يريد إقناعي أن كتاب النيكروفيليا وبرودسكي والمهندس وجماعة ريبي
رث كلها خيالات صنعتها لنفسي، لأنني أعشق الموت.. ولأن حبي لزوجتي وفقدها قد جعلا أسلاك عقلي تحترق كلها..

هذا الرجل يهذي. يومًا ما سأخرج من هذه المصحة، وأعود لذلك البيت وسط الثلوج في فيرمونت.. سأجد أفراد جماعة ريبيرث وسوف يحكون لهم عن لحظة التحول التي رأوها جميعًا عندما صرت أنا أنوبيس...

يومًا ما سأجد جين من جديد، ولسوف تعيش معي للأبد...

سيرون...سيرون.

تمت

يمكن أن يطلق سهامه الآن.. لكن لن يطول الأمر حتى يصل له الباقون..

فليبق ساكنًا...

لكن الخطط من هذا الطراز تكون هشة جدًا. هذا الماعز الجبلي اللعين كثيف الفراء وثب من جواره، وبما أن الجليد لم يذب بعد، فقد انزلق حافره.. تمالك نفسه بصعوبة، لكن قطعة ثلجية عملاقة انحدرت من أعلى محدثة دويًا وتناثرت..

رفعوا رءوسهم.. وأدرك أوتسي انهم رأوه.. تصاعدت صيحات النصر.

لم يعد هناك داعٍ للتخفي.. إنه في مكان عالٍ ويمكن أن يؤذيهم بقسوة قبل أن يموت. جرد سهامه وأطلق على الرجال ثلاثة أسهم.. وسرعان ما رأى رجلين ممددين على الصخور يحاول كل منهما أن يخرج السهم من صدره.. ثم همد أحدهما..

انطلق يصعد لمستوى أعلى وهو يلهث من البرد والانفعال...

هنا فوجئ بواحد منهم يعترض طريقه وهو يزأر بوحشية ويلوح برمح.. لحيته منتفشة وعيناه من نار واللعاب يسيل من شدقيه كالضباع. وأدرك أنه جاء من طريق مختصر بين الصخور ليهاجمه من الخلف.

لم ينتظر.. طوح بالبلطة فشج رأس المهاجم إلى نصفين.. بعد ٥٥٠٠ عام سوف يندهش العلماء لأن هناك أكثر من نوع من الدماء على البلطة وعلى ثياب أوتسي. ثم يقررون أن السبب هو أنه قتل كثيرين قبل موته.

طار سهم من مكان ما فانغرس في صدره..

-«الآن يا شباب.. سنغير التاريخ!»
وضغط على الزر الأزرق..

٤

للحظة تألقت الغرفة بضوء أزرق غريب .. يشبه الأمر ذلك الضوء الذي يغمر الشارع كله عندما يكون هناك من يقوم بعملية اللحام. رائحة أوزون قوية لو كانت للأوزون رائحة ..

كان التأثير الكهرومغناطيسي قويًا وشعر الرجال الثلاثة بأنهم في خلاط أسمنت .. طنين يصم آذانهم .. غثيان ..

ثم بدأ دخان يغمر المكان ..

هتف داريو وهو يقاوم حتى لا يفقد الوعي:

-«هناك شيء خطأ ... ثمة حريق في مكان ما ..»

لكن لورنزو والدكتور كانا يتوقعان هذا .. المهم أن تنتهي هذه اللحظات سريعًا. للأسف لا يمكن الضغط على زر لإنهائها. هذه دورة تستمر ٨٠ ثانية ولا بد من استكمالها ..

فجأة دوى الانفجار، وشعر ثلاثة الرجال بأنهم يُقذفون للخلف . كان داريو قد أوقد فرن الموقد ذات مرة بينما كان مليئًا بالغاز، فانفجر وطار هو ليرتطم بالجدار. لقد تكرر ذات الشعور من جديد.

كان هناك .. يتنفس بصعوبة وهو على الأرض. نهض وراح يتفقد الآخرين ...

شرسون لكنهم أغبياء. أنت تملك الذكاء وبالتأكيد سوف تتمكن من قهرهم ..

راح يتأمل الوشم الغريب على ذراعيه .. ثم راح يهرش شعره المنكوش .. التقط قملتين من شعره تفحصهما في هلع، وشعر بأن هناك بركان نار في معدته ..

أين رأى هذا الوشم من قبل؟

ثم ارتجف هلعًا .. كان هذا منذ ساعات ..

المومياء !!!

****

-«هل ترغب في الرحيل يا مصطفى؟ سنعيدك إلى بولتسانو»

-«هل أنت بخير؟»

-«أنت بحاجة لنوم عميق»

قال د. باولو:

-«إنه في حالة صدمة عصبية .. أرى أن نعيده لمسكنه حالًا.. كلارا صديقته تعرف كيف تعنى به .. لا .. لا أطباء»

لم يتكلم مصطفى .. بينما شعره الطويل يغطي وجهه وهو يستند إلى داريو ولورنزو .. أطلق صوتًا غريبًا من بين شفتيه وزاغت عيناه .. بدا كمن يحملونهم للشنق عندما تتخلى أقدامهم عنهم ..

في توتر سانده الرجلان متجهين إلى خارج الكوخ .. لحق بهما د. باولو وهو يرمق الكوخ في حسرة ..

-«مصطفى!.. ماذا دهاك؟؟»
واندفعت نحوه لكنه أزاحها بخشونة، ثم مد يده يطبق على معصمها ..
جرها معه نحو البناية، وهي لا تفهم شيئًا ..
مصطفى/ أوتسي كان يشعر بشيء غامض يقوده في هذا الاتجاه بالذات .. ثمة شيء غريزي يحركه، كأنه جاء هذا المكان مرارًا .. السبب الآخر هو أنه كان بحاجة إلى الارتواء بعد كل ما لوث فمه من دماء. كانت معركة جيدة جندل فيها خصومه ومزق حنجرة أحدهم وكسر عنق الثاني، ثم مد يده في قلب الثالث فانتزعه .. هو كالوحوش يريد شرب الماء ليزيل مذاق الدم ..
ثم أنه يشعر بحاجة قوية للتكاثر .. غريزة التكاثر تدفعه دفعًا نحو هذه الأنثى ..
-«مصطفى .. لماذا تشدني بهذه القوة؟».
لكنه أصدر نوعًا من الزئير ..
ثمة شيء غريب هنا .. انظري له جيدًا يا بلهاء. هذا ليس مصطفى .. هاتان ليستا عينيه. هاتان عينا مجنون ..
انظري جيدًا يا بلهاء .. هذا الدم على وجهه وفمه وصدر قميصه لم يأت من اي جرح في جسده .. لا توجد جراح .. ألا تلاحظين هذا؟ هذا دم غرباء!
إنه يفتح الباب .. إنه يصعد معك إلى الشقة وهو يصدر خوارًا ...

****

مصطفى !.. كف عن هذا الذي تفعله .. أنا مذعورة فعلاً.. ثق أنني لاأجد ذرة إثارة في هذا..

هل هو ثمل؟ أصدقاؤه قالوا إنه ليس على ما يرام. فهل هذا هو السبب؟ أين رفاقه؟
«التكاثر!.. التكاثر!»
هرعت إلى النافذة لتفتحها وليتسرب الهواء البارد. هل تصرخ؟ هنا رأت السيارة الفان عند المنعطف لم ترحل بعد.. السيارة التي جاءت به.. برغم المسافة البعيدة، فقد أدركت أن هناك من يزحف على الأرض جوار الإطار الخلفي.. يزحف وهو يرتجف ...رجل طويل الأطراف كالعنكبوت أو كأنه قلم رصاص آدمي.. كان الدم ينزف بغزارة من رأسه محدثًا بركة مخيفة من اللون الأحمر. زحف بضعة سنتيمترات أخرى ثم همد نهائيًا.
هذا الدم لم يكن دم مصطفى.. هذا دم من كانوا مع إذن..
مصطفى لم يعد هو. هناك شيء مخيف ..
كانت فتاة ذكية، وقد قدرت أن الباب سيتهاوى حالاً.. عضلات المصري القوي سوف تنتزعه من مفاصله قريبًا...
اتجهت للثلاجة.. أخرجت زجاجة الماء وبيد راجفة سكبت السائل عند مدخل الباب وحول عتبته، بحيث صار من المستحيل أن يمشي أحدهم دون أن يبتل..
نزعت قابس الثلاجة، ثم قطعت السلك بالمقص، وأعادت القابس إلى الفيشة، وبحذر طوحت بالسلك العاري ليتلوى على الأرض كثعبان... يتلوى وسط بقعة الماء فيكهربها بالكامل....

لقد مجدوه وعبدوه وقدموا له القرابين والإناث كريهات الرائحة، وفي نفس الليلة سوف يفتكون به .. ولربما يأكلونه.

للأمر طابع ديني أكيد ...

مد يده إلى البلطة الملقاة بجواره، وفكر في أن يطبق عليها، لكن يده كانت رخوة تمامًا .. لابد أن هذا الذي شربه كان يحوي نوعًا من الأعشاب المخدرة..

فكر أن يقاوم، لكنه كان عاجزًا عن ذلك ...

هوت أول ضربة على كتفه فمزقته، ثم انغرس رمح في كتفه .. ليكونن موتًا بطيئًا شنيعًا إذن ..

ثم خطر له أن موته قد يكون الأفضل فعلاً ..

لن يتحمل الحياة في هذا الزمن ومع هؤلاء القوم ..

قد يؤدي موته لإنقاذ كلارا، فالحقيقة هي أن وعي أوتسي يحرك هذا المسخ ..

فقط يجب أن يحترق هذا الجسد .. يجب ألا توجد مومياء يجدها العلماء بعد ٥٥ عامًا .. يجب أن ينال أوتسي الراحة النهائية، وإلا جاء عالم مجنون بعد كل هذه القرون وأعادها للحياة من جديد..

برغم الطعنات التي شلت حركته مع المخدر، زحف نحو النيران المتأججة وألقى بنفسه فيها ..

وارتجف البدائيون الذين لم يفهموا ما حدث .. بدل أن يقتلوه وجدوه يقتل نفسه بنفسه.. يتلظى في النيران ويصرخ...

****

ظللت لفترة ماطًا شفتي للأمام كأبله، ثم مددت يدي فأعدت شفتي لمكانها....

لا يمكن الاكتفاء من هذه.. لا يمكن أن تشبع منها.. الطريقة الوحيدة هي تذويبها في سائل تحقن نفسك به في العروق على طريقة أفلام فرانكشتاين القديمة.. وأذكر قول الشاعر ابن الرومي:

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها – وهل بعد العناق تدانِ؟

وألثم فاها كي تذوب حرارتي – فيشتد ما ألقى من الهيمانِ

كأن فؤادي ليس يشفى غليله – سوى أن يرى الروحين تمتزجانِ

ابن الرومي كان يتعذب حقًا .. هذه أبيات صادقة تقطر دمًا...

أحيانًا أجد هذه الأبيات القديمة جافة سخيفة، لكنها مثل السمك البكالاه الذي كان أبي يبتاعه لنا في طفولتي. قطع جافة شبيهة بالخشب .. ضعها في الماء قليلاً.. تصر سمكًا نضرًا شهي الطعم. عش قصة حب ولسوف تكتشف أن أبيات كثير عزة أو قيس بن الملوح أو العباس بن الأحنف عبقرية. عش وحدك ولسوف تتساءل عن قيمة هذه الحفريات التي تقف كلماتها في حلقك.. نفس الشيء ينطبق على أغاني أم كلثوم. عش وحدك ولسوف تجدها مملة طويلة جدًا لا تكف عن التكرار كأن الجمهور معتوه.. قَع في قصة حب ولسوف يبكيك كل حرف في أي أغنية..

مشيت معها إلى حيث حزام الأشجار الذي يطل على الحديقة المهجورة ليلاً. هناك كشاف يبعث ضوءًا واهنًا، وفي هذا الضوء كنت أرى في الماضي العشاق الذين يتوارون عن العيون.. كنت أحسدهم وهذا الحسد يتسربل في شكل غضبة أخلاقية على ما وصلت له أخلاق الشباب المتردية.. كنت أكرههم بصدق، لكني

هكذا كتبت مشهدًا يصلح لفيلم رومانسي.. الفتى شادي مع الفتاة الجميلة فيروز في موعد في مكان هادئ. ليلة رومانسية ساحرة تنفتح فيها طلاسم صناديق العشق الموصدة، وينتصر الهوى السكران. ثم في الذروة وفي لحظة عاطفية متأججة يهوي الفتى بالسكين على عنق الفتاة لينحره ..

هي لحظة صادمة بالتأكيد. لكن لماذا وكيف؟

في فيلم (كلب أندلسي) لبونويل يشق البطل عينًا بشرية بالموسى، ولا نطالب المخرج بأي تفسير لهذا المشهد لأن الفيلم سريالي ومن حقه أن يكون مجنونًا.. لكن كيف يتصرف من لا يقدم فيلمًا سرياليًا ؟

كنت غارقًا في مصيدة هذا المشهد الذي راق لي، لكنك بالتأكيد لا تستطيع أن تجد له مبررًا واضحًا ..

جلست في الكافيه ورحت أراقب مطفأة السجائر التي فاضت بما فيها وكادت تنسكب.. لكنها تطالب بالمزيد. وقد كنت جاهزًا لأمنحها ما تريد ..

عبر سحب الدخان أرمق ذلك الفتى الذي يجلس في الركن في الضوء الخافت، وقد طوق كتف فتاة. ظهرهما للمكان مما يدل على أنهما يداريان قصة الحب أو الاشتهاء هذه ..

كان له شعر طويل معقوص عند مؤخرة رأسه على شكل (ذيل خنزير)، وله لحية مشعثة .. أما هي فلم أتبين سوى أن شعرها بندقي جميل ..

-–«فيروز!»

دوى الصوت الرفيع الفضولي من خلف كتفي فاستدرت..

٣

رافـان

سامية كانت مرهقة جدًا عندما زرناها في البيت.

هناك كانت جالسة في الفراش وقد أسندوا ظهرها بالوسائد، ملكة متوجة على عرش الأمومة، على وجهها ذلك الشحوب الراضي المميز لأنثى تحققت أنوثتها، وكانت تفوح من أنفاسها رائحة الحلبة، بينما أم رءوم مسنة تعنى بها كطفل ..

الرضيع جوارها على الفراش وهو يقرقر .. بينما تضع فيروز مظروف (النقوط) على الوسادة جواره.. فتضحك سامية في امتنان شاكرة .. تعبت نفسك ...

سألتها نازدار أختي وهي تشرب الشاي:

-«هل قررت تسميته؟».

قالت سامية وهي تمد إصبعها ليطبق عليه الرضيع بقبضته:

-«ما زال الوقت مبكرًا .. ربما أطلقنا عليه اسم (عباس) مثل والد محمود!»

تبادلنا النظرات الساخرة وقلصت نازدار أنفها مستنكرة .. ربما هو اسم مناسب لرجل ضخم بشارب، لكنه بالتأكيد لا يناسب هذا الرضيع الجميل .. ليس ذنبه أن يصير اسمه عباس..

فيروز أختي ظلت صامتة ..

-«نحن الشقيقات إمبوسي ... مورموليسيا ...! هل تفهمن هذا؟».

تبادلت وفيروز نظرات الذعر .. البائسة جُنّت تمامًا ..

قالت نازدار في ثبات:

-«ألا تفهمان بعد؟ نحن جئنا من أرض بين النهرين، حيث سادت أساطير عشتار وليليث .. أمنا لها اسم لا يثير الشكوك لكنها في الحقيقة تدعى لاماتسو .. لقد انتقل الإرث لنا نحن الأخوات إمبوسي .. نحن الذئبات المفترسة!.... في الماضي كنا نقتل الحوامل أو نخنق الأطفال الرضع ونمتص دمهم .. ».

صرخت فيروز في توحش:

-«هلا كففت عن هذا؟ أنت مجنونة!!».

وقلت أنا في ذهول:

-«إن الطبيب النفسي الذي يعالجك فاشل تمامًا!».

-«لأن ما أنا فيه ليس مرضًا .. إنه ميراث الأجيال.. لابد أن جدتي كانت تعابث جلجاميش وتتحدى عشتار هناك في بابل .. أبونا تزوج أمي ثم أصابه الذعر عندما عرف طباعها فطلقها، وعاد ببناته الثلاث لمصر .. لم يعرف الحقيقة ..».

صرخت فيروز من جديد:

-«اخرسي يا سافلة .. أنت تثيرين رعبي!».

ضحكت ضحكة خافتة مخيفة، ودون أن تقول كلمة اخرى التفت بملاءتها وأدارت لنا ظهرها وغرقت في النوم ..

لكنها كانت قد ألقت بذرة الرعب في نفوسنا ..

لسبب ما شعرت وشعرت فيروز أنها ليست مجنونة تمامًا .. نحن لا نعرف شيئًا عن أمنا .. فماذا يعرف أبي؟ لماذا طلق أمي؟ ولماذا لم تحاول الاتصال بنا منذ الطلاق؟

لكننا عرفنا على الأقل أن نازدار خطرة .. من المخيف أن نتركها مع أي طفل رضيع. هناك لحظة دائمة تدرك فيها أنها توشك على خنقه أو قتله وننقذ الموقف بصعوبة. هي مجنونة ولسوف ترتكب جريمة كارثية.

الأسوأ أنني عرفت أنها بحثت عن وظيفة .. وقد بارك أبي هذا طبعًا خاصة انني وفيروز ما زلنا ندرس.

كانت خريجة لكلية الآداب، ثم عرفنا أنها وجدت عملاً .. أين؟... في إحدى دور رعاية الأطفال!!.. لا أعتقد انها ستقابل الكثيرين من الرضع، لكن هب أن هذا حدث؟.

ازداد الأمر سوءًا عندما سمعنا بعد شهر عن وفاة غامضة لطفلين في تلك الدار. الصحف كتبت عن هذا وتحدث أطباء كثيرون عن SID وهو موت الرضع المفاجئ الذي ينجم عن وضع الطفل الرضيع في وضع غير مريح حراريًا.. كابوس العالم الغربي. لكننا لم نرتح كثيرًا لهذا التفسير ..

هل هو تأثير بنات لاماتسو؟

في جميع الأحوال نحن في مأزق خطير .. لا يمكن أن أخبر أبي بمخاوفنا، وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتكلم عما قالته نازدار في تلك الليلة السوداء.

الحل الوحيد هو أن أنتظر ..

فيروز تتغير. فيروز ترتجف.. فيروز قلقة.. فيروز تخفي سرًا.. فيروز لا تنام..

ذات ليلة جلسنا في مكان هادئ، فقررتْ أن تتخلص من العبء النفسي الذي أرهقها، وحكت لي ببساطة قصة أختها نازدار المريضة نفسيًا.. بدا لي كأنها حكتها مرارًا من قبل. تحكيها بحنكة غريبة..

كنت أرمق عينيها الجميلتين وهي تتكلم..

قالت لي بعد ما جرعت كوبًا من العصير من أجل ريقها الجاف:

-«طبعًا لا أصدق حرفًا من هذا الهراء... لكن الحقيقة المخيفة هي أن أختي تعاني مرضًا نفسيًا متقدمًا. لا أعرف ما يجب أن أفعله»

كنت أفكر في عمق. هل هذا المرض النفسي يُورّث؟ يعني هل تحمل فيروز شعرة الجنون هذه؟

قلت لها:

-«الوسواس القهري يفعل أكثر من هذا.. قرأت عن هذا كثيرًا... هناك فتيات يبتن في الشارع لأنهن يخشين أن يذبحن أهلهن وهم نائمون».

ابتلعت ريقها وقالت همسًا:

-«وفاة الرضع في دار رعاية الأطفال التي تعمل فيها . هل هي صدفة؟»

-«كلي يا نازدار!»

تقلصت أمعائي وتمسكت بطرف المنضدة حتى لا أفقد الوعي.. نازدار وليس منار.. أنا إذن أجلس على بعد مترين من بطلتي قصتي! هل يوجد تفسير؟ ببساطة لا يوجد تفسير..

كأنما لم يحدث شيء نهض الثلاثة وغادروا الكافتيريا، طبعًا بعد ما ألقوا قنبلة من علامات الاستفهام. لسبب ما أقابل أبطال قصصي في هذا المكان بالذات..

منذ أعوام قرأت (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) تحفة الإيطالي لويجي براندللو، لكنها تختلف كثيرًا عن الوضع الحالي. أنا أعيش في شبكة معقدة من المصادفات.. لا شك في هذا..

لكن ... كم فتاة تعرفها اسمها (نازدار)؟ وكم (رافان)؟ هل هناك مصادفة كهذه؟

عدت أطالع النص، ثم قررت أن أترك هذه الأسئلة السخيفة وأن أعود لاستكمال ما بدأته. وجدت على مائدة مجاورة جريدة مطوية.. هذا مشهد غير معتاد لأن الناس لم تعد تقرأ الصحف كما تعلم. صارت الصحف الورقية شيئًا نادرًا مسليًا، وقد خطر لي أن أقلب صفحات الجريدة بحثًا عن إلهام أو شيء ممتع..

نهضت وأخذتها ثم عدت للمائدة، وجاء النادل فطلبت كوبًا من النعناع بالليمون (الموخيتو) .. ثم رحت أقلب الصفحات في تؤدة.. غريب هذا .. صفحة الحوادث فيها ثلاثة أخبار عن رضع أو أطفال ماتوا في ظروف غامضة. الأمر يحدث فعلاً.. لو أن طبيبًا نفسيًا سمع بهذه القصة، لقال إنني عرفت القصة كلها وقابلت هذه الوجوه من قبل، ثم إنها خرجتْ من عقلي الباطن عندما أردت كتابة قصة، مع لمسة من ظاهرة Jamais vu التي توحي لك

هولمز وواطسون. طبعًا هذا مستحيل ومعناه ببساطة أنني جننت. اخلق عوالم خيالية ثم أجد نفسي وسطها..

هل صارت رافان من الأخوات أمبوسي بدورها؟ كانت مستنكرة مندهشة في قصتي. حسب قصتي قد تغيرت فيروز فعلاً..

أجفلت عندما استدارت نازدار للخلف ونظرت نحوي. أقسم أن عينيها كانت تشعان نارًا..

ثم أنها مالت على رافان وهمست بصوت مسموع:

-«هذا الجالس خلفنا ..الذي يجلس أمام لاب توب أقسم أنه سمع محادثتنا»

ألقت رافان نظرة سريعة ثم قالت:

-ـ«لن يفهم شيئًا.. لا عليك!»

قالت نازدار وهي تنظر نحوي:

-ـ«بل هو يفهم ويتابع المحادثة.. عيناه تشيان بذلك. لاحظت أنه كان يتابعنا أمس باهتمام شديد.. أعتقد أنه شاهد خطرًا! أنا لا أهتم سوى بالأطفال، لكن قائمة من أريد الخلاص منهم بين الكبار تتمدد»

كنت أرتجف خوفًا...

لابد من تفسير واضح لهذا الذي يحدث..

قاومت قليلاً.. توقعت مقاومة شنيعة من أكبر الأخوات أمبوسي لكنها انهارت بسرعة وتهاوت كالكيس الفارغ على الأرض..

ثلاثة أجساد ممددة على الأرض.. خرجت لخارج الشقة وأخذت شهيقًا عميقًا لأن رأسي بدأ يدور، وكذا فعل كمال .. ثم أشرت له كي نكمل ما بدأناه ..

سنحز عنق الفتاتين ونرحل.. بالتأكيد سوف يموت الأب بنوبة قلبية عندما يفيق ويدرك ما حدث لبناته الثلاث، لكننا لن نحمل دمه على أكفنا .. سوف تكون جريمة بشعة تتسابق الصحف على نشر تفاصيلها، لكنهم لن يعرفوا أنني قمت بأسمى عمل ممكن للبشرية..

قلت لكمال همسًا وأنا ألوح بالسكين:

-«هيا ننته.. لا تلوث يدك بالــ..»

٨

جودت

كنت أكتب بسرعة جنونية ..

وحدي في الشقة أمام شاشة اللاب توب وبقايا الكابوتشينو يتصاعد منها الدخان ..

سوف يتم ذبح الأختين الآن ويفر شادي مع صاحبه، وقد قضيا على هذا الكابوس. لو كانت تصوراتي صحيحة وكنت أنا من يخلق هذه الكوابيس، فلسوف تموت الفتاتان فعلاً في عالم الواقع.. هناك من سيجد جثتيهما المذبوحتين غدًا وبعد أيام سيجدون فيروز..

رفقاء الليل

١

اسمه إسماعيل

لو كانت هذه القصة بضمير المتكلم الأول، لبدا هذا كأنه أول سطر في رواية ملفيل «موبي ديك»: «سمّني إسماعيل»، لكنك بالطبع تعرف أن عم إسماعيل لا يملك القدرة على كتابة قصة، وهو يقرأ بصعوبة بالغة.

يمكنك بسهولة أن ترسم صورة ذهنية لعم إسماعيل، فهو نحيل.. أشيب الشعر.. له عين واحدة مغطاة بسحابة رمادية أتلفت القرنية.. له شارب كث يليق بطبقته التي تعتبر الشارب من علامات الفحولة. له طابع ريفي واضح، وبوسعك في أي لحظة أن تجرده في ذهنك من بذلته الميري لتتصوره بالجلباب والبُلغة في قريته، جالسًا على المصطبة يشرب الشاي الثقيل. الحقيقة أن هذه حقيقته طيلة اليوم باستثناء ساعات العمل في الحديقة. هل تحتاج للمسة أخرى؟ بالطبع. لن تكتمل الصورة بصريًا من دون لفافة تبغ خلف الأذن.

عم إسماعيل يقترب من سن التقاعد، وهو يتوق لذلك اليوم بعد عمر طويل حافل عانى فيه الكثير. لديه ابنتان تزوجت واحدة منهما، وعامة هو لا يحكي الكثير عن بيته. لا يحكي عن همومه ومشاكله.

كل الأقفاص مغلقة.. لم يفر دب أو أسد أو ضبع من قفصه.. لا شيء يبرر منظر هذه الجثة.. إنها لغز حقيقي.

النظرية التي خطرت لرجال الشرطة هي أن أسدًا فر من قفصه بسبب الإهمال، ومزق الحارس، ثم قامت إدارة الحديقة بإعادته لقفصه بسرعة خشية المحاسبة.. لكنها نظرية غير قابلة للبرهنة عليها.

عندما استجوبوا عم إسماعيل قال:

- «أشياء غريبة تحدث في الليل يا بك..»

- «أشياء مثل ماذا؟»

حك عم إسماعيل رأسه وأصلح من وضع الطاقية وقال:

- «مساحة أشجار بهذا الاتساع.. الليل والظلام والوحدة وسط كل هذه الفدادين.. عواء الذئاب... زئير الأسود.. لو لم تجد العفاريت هذا المكان موضعًا فأين تقيم يا بك؟»

- «هل تريد القول إن العفاريت هي التي قتلت رشدي؟»

- «لا أعرف شيئًا يا بك.. فقط أعرف أنني لم أقتل رشدي.. لا أنا ولا بسيوني..»

لكن عم إسماعيل كان يعرف ما هو أخطر بكثير. الأيام التالية برهنت على أنه يعرف الكثير فعلاً.

٢

جاء نجاتي بعد رشدي .

نجاتي من قرية جوار كفر الشيخ، وهو شاب في الثلاثين، لكن الصلع المبكر وتجاعيد الهموم على الوجه.. كل هذا جعله يبدو

نجاتي بدأ يتوتر.. ما معنى أن يدخل الحديقة ليلاً شخص غريب؟ ما دور الحارس الليلي إذن؟

ثم خطرت بذهنه أفكار أسوأ. كان يسمع عن حراس يخفون الهاربين من الشرطة في الحديقة ليلاً، وسمع عن حراس يسمحون للعشاق باللقاء المحرم في الحديقة.. مقابل مال طبعًا. إسماعيل ليس أمينًا على الحديقة إذن..

من جديد قال عم إسماعيل:

- «حاول أن تتناسى كل ما في ذهنك من هواجس.. تعال واجلس معنا»

لم يدر ما يقول.. في الظلام زحف على العشب ونزع صندله ثم جلس القرفصاء. وجد لفافة تبغ مشتعلة في يده فسحب منها نفسًا عميقًا..

قال جابر بصوت خفيض:

- «البرد في الليل يمنعك من النوم.. ترتجف. والرجفة تطرد النوم طردًا. ثم إن رائحة الأقفاص تجعلك عاجزًا عن الاسترخاء»

ثم ضحك ضحكة غريبة.. قهقهة مدوية لا مبرر لها. بدت مألوفة لدى نجاتي لسبب ما لم يستطع أن يتبينه. كان يحكي قصصًا غير مألوفة..

ثم سمع نجاتي صوت خطوات قادمة فأجفل. استدار للخلف فرأى ما كان يخشاه. هناك فتاة وشاب قادمان وقد تعانقت أيديهما. هذه أسوأ مخاوفه تتحقق. إسماعيل ليس حارس حديقة فقط..

قال إسماعيل بلهجة هادئة:

- «درية.. وسامح.. سوف تحب صحبتهما..»

كانت الفتاة – برغم الظلام – بارعة الجمال رشيقة بدرجة غير معقولة.. أما الفتى فكان مرن الجسد فارع الطول، والغريب الذي لاحظه نجاتي هو أنهما يلبسان أسمالاً على جسدين عاريين كما هو واضح.. هذه ثياب قديمة مهترئة جدًا..

من جديد دارت محادثة لم يستطع نجاتي أن يفهم معظمها... فقط لاحظ أن سامحًا يسعل من وقت لآخر سعلة طويلة قوية تجعل لسانه يتدلى. عندما قدم لهما عم إسماعيل شطيرتين من الشطائر التي يجلبها للعشاء، لاحظ نجاتي أنهما يأكلان بفظاظة وبلا تكلف..

لماذا لا يشعل إسماعيل النار؟

أخرج عود ثقاب ووضع بعض قطع الخشب الجاف فوق بعضها، وأشعل العود عازمًا على أن يشعل بعض النار لتشيع الدفء. هنا سمع صرخة محذرة.. وهتف إسماعيل:

- «لا تفعل!.. إنهم يريدون الظلام!»

ارتجف نجاتي.. الصرخة كانت رفيعة جدًا وغير بشرية على الإطلاق.. لو أردنا الدقة لقلنا إنها صرخة حيوانية....!

٣

تلكم أغرب مجموعة من البشر يمكن للمرء أن يمضي أمسيته معها. كان نجاتي يفكر في قلق... في البدء هذا الأخ جابر غريب الأطوار، ثم يأتي الفتى والفتاة الرشيقان اللذان يكرهان النار.. بعد قليل ظهر ضيف آخر.. رجل طويل القامة له جلد مجدور غريب..

في غموض قال عم إسماعيل:
- ثمة أشياء لا تسأل عنها.. فقط اجلس معهم وأصغ لكلامهم.. وعند الفجر ينتهي كل شيء. دعك من أن هذا لا يتكرر كل ليلة.
هنا دوى صوت مرعب كأنه زئير أسد.. ارتجت الحديقة للصوت، وكان نجاتي يعرف أن الأسود تزأر ثلاث مرات قرب الفجر.. ذلك الصوت المميز الشبيه بهدير محرك. هذا هو نفس الصوت تقريبًا..
قال إسماعيل في شيء من الارتباك:
- عائلة الزناتي قد جاءت.. أنصحك أن تؤجل هذا الحديث لما بعد.
وقبل أن يفسر شيئًا كان قد أطفأ مفتاح الكهرباء وغادر قاعة المتحف متجهًا إلى فرجة الأشجار التي شهدت الاجتماع. خرج نجاتي لاحقًا به وقلبه يتواثب.
هناك في موقع الاجتماع وقف خمسة أشخاص منهم من له شعر كثيف منكوش ثائر.. هناك اثنان قصيرا شعر الرأس. بعبارة أدق هناك أنثيان. بدا غريبًا بعض الشيء أن يكون شعر الرجال ثائرًا طويلاً وشعر النساء عكس ذلك.. المخيف أن صوتهم غريب يذكرك فعلاً بالزئير.
كان إسماعيل يرحب بالقادمين في توتر:
- مرحبًا (بأجدع ناس).. كنا ننتظركم في شغف.
قال أحد الذكور من طويلي الشعر:
- صار لك تابع جديد بعد من مات.
قال إسماعيل بصوت مبحوح:
- ليس تابعًا.. هو زميل شاب.. اسمه نجاتي.. وهو شاب شهم من كفر الشيخ.. له زوجة وطفلان بالمناسبة.

- «بصراحة لست واثقًا... لو كان يعرف فقد أخفى هذا ببراعة عني. لكن ما أعرفه عنه هو الحمق والاندفاع.. لا يقدر على حفظ سر أكثر من نصف ساعة. لو عرف لتكلم في كل مكان. على الأرجح لم يتم التحول في الليالي التي يسهر فيها..»

قال نجاتي في عصبية:

- «هناك شيء واحد.. أنا لن أمضي الليل هنا.. سوف أمضيه في الغرفة الضيقة. سأغلقها علي، فخذ الشيشة لو كنت تريد التدخين..».

بطريقة من يعرف هذا كله من قبل، قال إسماعيل:

- «لا بأس.. توقعت هذا.. سوف تحتاج لوقت طويل كي تفهم وتعتاد.. افعل ما شئت، ولكن لتعرف أن ما تراه هنا سيظل سراً.. قلت لك إن لهم فتيلاً فلا تدس عليه».

لم يرد نجاتي.. مشى في الظلام مبتعدًا وهو يتحسس السور الحديدي المدبب. من بعيد يرى طاووسين يفردان ريشيهما في غزل ليلي مع الصوت المميز، ثم يرى ثعالب الفنك تتسلق السلك الشائك في أقفاصها، ويصدر الفيل صوتًا عميقًا مليئًا بالشجن..

كانت هذه غرفة الحراس بضوئها الخافت. دخلها وبحث حتى وجد الشيشة المفككة والفحم فأخرج هذه الأشياء للخارج، ثم أغلق الباب على نفسه والتف بالبطانية، وراح يرتجف.. كأنه محموم...

مد يده يعبث في مفتاح جهاز الراديو، وسرعان ما سمع صوت الست يغني:

- «أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادي من غدي»

العتيقة جوار زوجها.. يعودان للبيت وينامان، وأنت تعرف أنهما لا يفتحان المحل قبل الواحدة بعد ظهر الغد.

ليس محلاً بالضبط.. بل هو مكتب اتصالات. معظم نشاطه يتعلق بالشحن وتجارة الكروت. لكن هناك بعض أجهزة الجوال القديمة وبعض الكماليات على الجدران.. وبالطبع ليس لك أن تتوقع أي عملاء بعد الواحدة صباحًا..

عاطف كان يلتهم بعض الخسّ بصوت عال، وهو يتابع المسلسل.. عندما نظرت هي إلى الباب فرأت ذلك الرجل الأصلع يركض نحو المكان. إنه يعرج بلا شك.. إنه مذعور كأنه رأى الشيطان..

والأغرب هو أنه يلبس ثيابًا شبه رسمية (يونيفورم) لها ذلك اللون الخاكي الكئيب.

شهقت فتوقف زوجها عن المضغ، وتلقائيًا مد يده إلى السكين التي قطع بها الخبز في العشاء ولوح بها منذرًا القادم الجديد، لكن القادم كان في حال سيئة.. ولم يبد حاملاً أي نوع من التهديد...

- «إنهم خلفي!»

- «من هم؟»

لا تفسير..

ثم إنه اقتحم المكان، وهتف وهو يواصل العرج ويتوارى خلف الكاونتر:

- «أغلق المحل.. بسرعة.. هناك ستار حديدي كما أرى!»

- «ولكن............»

- «لا وقت للشرح!»

لم ينطق نجاتي ولم يعط أي تفسير.. ظل صامتًا بعض الوقت، ثم مال على عاطف الجالس خلف المقود وقال:

- «أنزلني هنا وليرعك الله!»

تساءل عاطف في حيرة:

- «لم تفسر لي... من هؤلاء؟ ما هذا؟»

وكما فعل عم إسماعيل من قبل، قال نجاتي لمنقذه وهو يفتح الباب ويترجل:

- «لا تسأل عن أمور من الأفضل ألا تعرفها.. عد لبيتك وأغلقه عليك، ولو أردت نصحي لاقترحت ألا تذهب لمحل الهاتف لمدة يومين أو أكثر»

وقبل أن يسأله عاطف سؤالاً آخر كان قد توارى في الغبشة المميزة للفجر..

****

- «هي جنية!»

كان هذا رأي خالد لكن أنيسًا لم ير هذا الرأي.. لا أحد يفكر بهذه البلاهة..

سيارة المراهقين العائدين في الفجر وقد أثقلت الأقراص المخدرة عقولهم. خالد خلف المقود، بينما أنيس جواره وفي المقعد الخلفي ياسر وأكرم.

وفي الشارع الذي بدأ الفجر يزحف عليه كان المشهد الذي لا يصدق. فتاة رشيقة فارعة الطول.. واضح أن جمالها لا يوصف.. والغريب أنها تلتف ببعض الأسمال حول جسدها العاري كما هو واضح..

- «الرجل قد جن. لقد خرب بيتنا»
وعندما دخلنا رأينا الرجل مذعورًا جدًا. كان يلبس الجلباب البلدي ويقف عاري الرأس فوق حشية الفراش وهو يولول كالنساء. وقد راح يحاول أن يلتصق بالجدار في ركن الفراش البعيد ليفر منا، وهو يردد بلا توقف:
- «عم إسماعيل..! لقد تسببت في موته!»
في النهاية استطعنا أن نجلسه وقدمنا له لفافة تبغ، ووعدناه بألا نؤذيه لا هو ولا أسرته، فقال دامع العينين:
- «لقد انتقموا منه لأنني لم أذعن.. لو أنني لم أفقد أعصابي.. لو ظللت متماسكًا حتى الصباح لتركوه حيًا.. لربما مت أنا مثل رشدي.. لكنهم عرفوا أنهم لن يلحقوا بي فقرروا الانتقام من عم إسماعيل».
كان هذا هو الجنون مقطرًا مركزًا.. وقد طلبنا نقله لمستشفى أبي عيطة للصحة النفسية في دسوق، وبدا لنا أنه من المستحيل استخلاص شيء من كلامه.. كان يخطرف وليس لديه ما يقال عن اختفاء الحيوانات سوى أنها هربت. من الذي فتح الأقفاص كلها؟ لا يوجد متهمون كثيرون. أنت يا نجاتي أو إسماعيل يرحمه الله. وبما أنك في حالة لا تسمح بالاستجواب، فهو مستشفى الصحة النفسية إلى أن يقرر الطبيب أن بوسعنا استجوابك.
تابع تقرير العقيد محمد السلاوي رئيس المباحث:
يجب أن أضيف هذا الملحق لأؤكد أننا وجدنا الحيوانات المختفية مؤخرًا. القصة غريبة بعض الشيء ويصعب تصديقها، لكن الجرد حسب جداول الحديقة كامل. كلها ميتة.. الأسود والضباع والذئاب والفهود ووحيد القرن.. كلها وجدت في مواضع عدة من المدينة.

نقوش

١

قال البروفسور ماساتو ساكاي بإنجليزيته التي هي أقرب لليابانية:

-ـ«نحن نقترب من الحل .. المشكلة ليست بهذا التعقيد».

لم يعلق واحد من الفريق. فالمشكلة كانت فعلاً بهذا التعقيد، بل أكثر بمراحل.

****

الدوامة التي دخلها عماد كانت أكبر من قدرته على الفهم .. أكبر من تحمل جهازه العصبي... أكبر من قدرات جهازه التنفسي. لم يتساءل من قبل عن شعور مسمار المثقاب وهو يخترق الخشب، لكنه يدركه الآن. رأى ذات مرة فيلمًا عن ظروف تدريب رواد الفضاء على تحمل الطرد المركزي، ورأى كيف يغيبون عن الوعي ويتدلى لحم وجوههم ويسيل لعابهم. تذكر هذا الفيلم في تلك اللحظات. ترى هل لعابي يسيل؟.

قال لنفسه:

-ـ«أنا أموت .. إن هي إلا لحظات وتمر بسرعة، ثم أفيق في الجانب الآخر».

لكن المشكلة هي أن اللحظات لا تنتهي. يبدو كأن الأمر أبدي بلا نهاية.

يمكنك أن تعيش مع شخص اسمه (ببببتنمكارروسان)، وهم لا يستعملون طريقة التدليل أو التبسيط ...

كان هناك في بيت (كيفياليبانماياسوش). كان يرقد في فراشها وينظر للسقف الذي ينبض والذي تتدفق فيه شرايين حية..... جدران ذات شرايين! . وكانت (كيفياليبانماياسوش) جميلة جدًا طويلة الأطراف لها أصابع يدين ملتصقة تزيدها جمالاً –لا أدري كيف- ربما لأنها تذكره بتلك الفتاة الجميلة التي كان الفنان بيكار يرسمها دومًا.

لم تكن تتكلم لكنه يسمع أفكارها بوضوح تام:

-«أنت في (زور)».

حاول أن يتكلم لكن الصوت لم يخرج. فقط خرجت أفكاره:

-«أين يوجد (زور)؟».

-«زور هو الكل الذي نحن فيه.. أنت دخلت دوامة زمنية ومكانية وفيزيائية، واليوم صرت منا».

لم يستطع الفهم .. لكنها في ذلك اليوم اقتادته عبر الممرات، وهناك كانت فتحة تنبض وتخفق كأنها صمام في قلب، وعبر الفتحة استطاع ان يرى العالم الخارجي ..

كان بحاجة لـ (كيفياليبيانماياسوش) لأنها تقوده في ظلمات ذلك العالم كما فعلت بياتريس مع دانتي في رحلته للعالم الآخر، ثم إن لديه اليوم طفلاً جميلاً. وكانت (كيفياليبيانماياسوش) تؤكد له أنه سيأتي يوم يجد نفسه فيها على كوكبه في ذات اللحظة التي فارقه فيها.. لكن هناك مشاكل معقدة .. هل يعود لنفس الزمن؟ هل يحتفظ بنفس الحجم الذي بدأ الرحلة به؟

كان الأمر شبيهًا بجليفر .. لربما وجد نفسه عملاقًا وسط أقزام ويقيدونه بالحبال لرمال الشط، أو يجد نفسه قزمًا ينام في قوقعة ... يحتاج لما هو أكثر من الحظ كي يعود لنفس الحجم بالضبط. وماذا عن نفس الزمن؟ الأمر شبيه بقصص الخيال العلمي.. لربما يجد نفسه في عصر الحروب الصليبية أو عصر غزو المكسيك أو عصر الحرب العالمية الأولى ويختنق بالغاز.. كل شيء وارد.

كانت (كيفياليبيانماياسوش) مهتمة بمعرفة كل شيء عن عالم عماد، ووجهت له الكثير من الأسئلة وقد أجاب عن كل سؤال، لكنه لم يظفر بالفهم في كل مرة. كانت هناك أشياء لا تفهمها ولا تتصورها. زور عالم مغلق متكامل لا ترى فيه السماء أو البحر، بالواقع هناك بحر وسماء داخل هذا التكوين العضوي الشبيه بالرحم؛ لهذا لم تتصور (كيفياليبيانماياسوش) قط أن هناك من يركب طائرة يعبر بها الأجواء، كما أن أشياء مثل الرعد والبرق بدت لها غريبة تدل على التخلف.

وجد صخرة على الأرض، فأمسك بها وركع على ركبته .. بدأ يخط على التربة أشكالاً ..

-«هل هذا هو الرسم ؟»

ابتسم وواصل العمل دون أن يقول شيئًا ..

رسم عنكبوتًا لا بأس به ..ثم رسم نسرًا يفرد جناحيه ... لم تكن رسومًا رائعة لكنها ترمز للشيء بشكل ذكي .. ثم أنه خط خطوطًا تمثل قردًا .. تمثل عقربًا ..

-«هل هذه مخلوقات من عالمك ؟»

-«نعم .. ومن الغريب أنه لا يوجد عالم حيواني عندكم في زور»

هلل الطفل وقد راقت له هذه اللعبة فبحث عن صخرة أخرى وراح يحاول تقليد أبيه في الرسم .. وشعر عماد برضا. لديه مما يعلمه لهؤلاء القوم، فهم مثلاً لم يسمعوا قط عن نشاط اسمه الرسم.

لكن (كيفياليبانماياسوش) كانت محبطة. قالت بلا مبالاة:

-

برغم هذا شعر بالحنين يعتصره..

رباه!.. كانت لحظات قاسية وهو يحتضن (كيفياليبانماياسوش) و(جراموسانتافونمك). لحسن الحظ أن هؤلاء القوم لا يبالغون في العواطف وإلا لرأينا مشهدًا هستيريًا...

اقتادته (كيفياليبانماياسوش) إلى ممر عضوي طويل.. ممر ينقبض وينفتح يذكرك بالحالب من الداخل.. الأرضية زلقة ولها رائحة عطرية غريبة.. لم ينظر للخلف ومشى نحو نهاية النفق المظلمة.. لا توحي أبدًا بوجود عالم خارجي. في الظلام الدامس خطا خطوة واحدة متأهبًا لأن يسقط في هاوية بلا قرار...

فجأة شعر بأنه يدخل دوامة رهيبة....

إنه في الطائرة!... الطائرة المصرية التي بدأ بها مغامرته.. والأغرب أنه يلبس كامل ثيابه والخوذة.. برج المراقبة يواصل تحذيره من العاصفة الرعدية!!

قال العالم الياباني إنه من الواضح أن من رسم نازكا رسم نماذج صغيرة ثم قام بتكبيرها بطريقة المربعات.. هذا طقس ديني يطلب الخصوبة للأرض.....

سقط كوب الشاي من يد عماد..

يعرف جيدًا هذه الرسوم... يعرف اليد التي رسمتها.. لكنه لم يكن قد رآها في بيرو من قبل. لم ير هذا الفيلم من قبل.

«وجد صخرة على الأرض، فأمسك بها وركع على ركبته.. بدأ يخط على التربة أشكالاً..

هل هذا هو الرسم؟

ابتسم وواصل العمل دون أن يقول شيئًا..

كان يحاول جاهدًا تذكر كيف ومتى جاء هنا.. لا يستطيع التذكر. كان هنالك في جمصة ينعم بالمصيف.. هناك قناديل بحر كثيرة قرب الشط، لذا قرر أن يتجه إلى أقصى اليمين حيث منطقة نائية لا يرتادها المصطافون وعلى الأرجح لا توجد فيها قناديل بحر.

كان هذا قرب الغروب .. غروب يوم من أيام يوليو.

نزل إلى البحر وراح يستعرض مهارته في السباحة أمام جمهور وهمي، وهي مهارة ضئيلة تشبه سباحة الكلاب كما تعلم .. لكنه كان وحيدًا آمنًا من اللسعات المؤذية للقناديل..

ماذا حدث بعد هذا؟ هو غير قادر على التذكر فعلاً.. فقط كانت هناك قوة كاسحة تقوده لأسفل وكان يقاوم وينثر الماء ويحاول التنفس جاهدًا.

بعد هذا ظلام.

يمكن القول إنه غرق، وهذا يعني أنه الآن في العالم الآخر يواجه عذاب القبر أو ما هو أسوأ. لكن كل شيء كان يخبره إنه ما زال حيًا .. يجب أن يفهم ..

****

ديفيد، وهما يملكان عدة مزارع تماسيح في شمال البلاد. لم يكن مولعًا بالموضوع، لكنه عرف أنه سيروق لابنه المراهق ذي الاثني عشر عامًا سامح.

هكذا كان هذا اليوم الممتع للابن المزعج للاب، الذي لم يحب الر

حلة البحرية ولا التماسيح ولا البحيرات المالحة ولا أي شيء على الإطلاق. لم يستطع أن يبعد عن ذهنه احتمال أن ينقلب القارب أو يسقط أحد ركابه في الماء.. ما فرصته في النجاة ؟

حسب ما قاله ديفيد عن تمساح المياه المالحة، ففرصة النجاة صفر ..

عندما ترجلوا على الشط قال ديفيد إنه يريد دعوة الأب إلى قدح من الشاي مع الحلوى، واتجه الرجلان إلى حيث مظلة يعنى بها أحد العمال .

وقف سامح على الشط وطاقة الأدرينالين لديه ما زالت عالية. كان آخر شيء يرغب فيه هو الجلوس وشرب الشاي، هكذا راح يركض هنا وهناك ويركل الرمال ..

هتف الأب:

-«لحظة يا سامح .. هذه المنطقة خطرة . التماسيح تتجه للشط بالتأكيد»

قال ديفيد ضاحكًا:

-«نحن نضع سورًا من السلك الشائك حول البحيرة لمنع التماسيح من ارتياد هذه البقعة .. لديهم الجزء الغربي من البحيرة .. يمكنك أن تطمئن»

مشى سامح وحيدًا وهو ينظر للأرض. يلتقط من وقت لآخر حجرًا غريب الشكل فيدسه في الحقيبة المعلقة في كتفه ..

فجأة توقف .. هذه المجموعة من البيض .. بيض أصغر نوعًا من بيض الدجاج، وله قشرة جلدية مرنة .. أي بيض هذا ؟

كان أول خاطر جاب ذهنه هو أن هذا بيض تماسيح. قال ديفيد إن التمساح يضع نحو ٦٠ بيضة، وهي ملكية مشتركة لكل الإناث .. أي أن الأم التي تجد البيض ترعاه حتى لو لم يكن بيضها.

الرئيس الأمريكي روزفلت أمر ذات مرة بإعداد عجة له من ٩٠ بيضة تمساح، وقد أكلها وقال إنها لذيذة الطعم !

سامح راكع على ركبته يرمق البيض ويفكر ..

أخيرًا خرج التمساح الصغير من البيضة .. كان في حجم السحلية الصغيرة، ويحتفظ بنفس درجة قبح وبشاعة البالغين. كل الكائنات الطفلة جميلة لكن يبدو أن التمساح استثناء.

عندما مد سامح يده نحو الكائن فوجئ بأنه وثب في الهواء محاولاً قضم إصبعه!

هذا مذهل!.. إنه يحتفظ بشراسته كاملة منذ لحظة الولادة.

لا أحد يقدر على أن يمسك بهذا الوحش الصغير الوليد بين يديه .. إنه سيقضم يدك فورًا ...

قرر سامح أنه رأى ما يكفي .. هكذا انطلق جريًا عائدًا نحو أبيه وديفيد. يمكنه تخيل التماسيح الصغيرة وهي تتخبط إلى أن تأتي أم من الأمهات الجوالات على الشط لتعنى بها. على الأرجح ستقودها نحو البحر ..

المغامرة الصغيرة التي بقيت له كانت أن يحمل البيضة معه سرًا إلى داره عندما عاد أبوه، بعد يوم ممتع مرهق في مستعمرة التماسيح. كان هناك في البيت حوض أسماك زينة فارغ لم يبق فيه سوى بعض الحصى، وقد صب فيه بعض الماء ثم نقله لغرفته وهناك وضع البيضة على القاع وطفق يراقبها.

في مقر عمله في معهد علوم البحار يطلبان رأيه في مهمة استشارية ..

جلس متوجسًا ينتظر ما سيقال له. بعد وقت طال وأوراق توقع ودعابات، قال الضابط الكبير:

-«نحن موقنون من وجود سمكة قرش تعبث حول شواطئنا ..»

حك كامل ذقنه:

-«ولماذا لم تطلبوا رأي خفر السواحل؟».

-«لأنهم يصرون على أننا نهذي ..»

ثم أخرج بعض الصور الفوتوغرافية من ملف أمامه، وقدمها لكامل ..

استطاع كامل أن يرى في الصور أطرافًا آدمية مبتورة ملوثة بالوحل .. هناك ساعدان وساق .. لا توجد رؤوس.

رفع رأسه متسائلاً طالبًا القصة، فقال اللواء:

هكذا ولد الحل التآمري. خطة خيالية فعلاً لكنها بدت له معقولة. سوف يأخذ سولتي معه إلى مصر. إنه صديقه ولن يتخلى عنه..

بالطبع ليس واردًا أن يتم الأمر بشكل قانوني أو تطبق قوانين حجر الحيوانات.. ليس من الوارد أن يقبل أبوه دخول هذه الدائرة الشيطانية من أجل سحلية ذات أنياب.

في مصر سوف يختار بين أن يعود بالتمساح لأستراليا ثانية، أو يتركه في النيل للأبد، وعلى الأرجح سيتعلم التمساح الحياة في المياه العذبة. التماسيح الأفريقية ذات الأنياب البارزة من الفم المغلق سوف تتعلم سريعًا أن تحب التمساح ذا الأسنان المختفية. لا عنصرية في عوالم التماسيح.

كانت الأم تعد الحقائب، ووسط ثيابه وضع سامح أسطوانة بلاستيكية كبيرة واسعة العنق استطاع بصعوبة بالغة أن يضع فيها التمساح الصغير مع بعض الماء ومحتوى علبة سردين. فليكن ما يكون .. ستكون معجزة لو ظل لدى التمساح أكسجين يكفي الرحلة الشاقة الطويلة إلى مصر، لكن لنترك الحظ يلعب دوره ..

يمكن القول إن الخطة نجحت ..

عندما انفرد بنفسه في بيت أقاربه في مصر، وبعد الكثير من التحيات والقبلات استطاع أن يصير في غرفته، ويفتح الأسطوانة

قال الأب للخال:

-«سوف أقوم بجولة على الشط مع سامح».

-«سوف آتي معك».

كان الأب مستعدًا للقتال والقتل كي لا يتبعه أحد، لذا تملص من الخال بكثير من الفظاظة.

وعندما دنا المساء وغربت الشمس، مشى الأب وسامح على الشط متجهين نحو الشرق ..

لم يكن هناك أحد، وقد بدا أن الظلام يحجب الرؤية فعلاً..

هناك قرب الشط عند مصرف الماء العذب مد يده وبحذر فتح الأسطوانة البلاستيكية، ثم وضعها في الماء .. ونظر إلى الشيء البشع الذي ينسل خارجًا.

في تأثر هتف سامح:

-«وداعًا يا سولتي!».

-«بل قل في ستين داهية ..»

كانوا ينظرون له في بلاهة .. هو كان ينظر لنفسه في بلاهة .. لا يتوقع أن يحدث شيء خاص، فهذه الحوادث نادرة .. يشبه الأمر أن تراقب أرن

بًا متوقعًا أن تهبط حدأة من السماء لتختطفه وتمزقه ..

مر أسبوع كامل على هذه المراقبة، ولم يحدث شيء ...

إلا أنه كوفئ على صبره في النهاية بطريقة غريبة نوعًا ..

هذا هو الجزء الذي لم يعد يذكره، وقد أنسته إياه الصدمة. كان يمشي على الشط ليلاً وخطر له أن يضيء الكشاف ليتفقد قناديل البحر الميتة الملقاة على الشط .. وقد غمر قدميه في الماء.

لا أحد سواه على الشط الممتد المظلم. يمكن أن يحدث أي شيء ....

فجأة ارتفع شيء عملاق من الماء وشعر بشيء جبار يطبق على ساقيه .. سقط في الماء، فأدرك أن هذا الشيء يحاول أن يبقيه تحت الماء. لا شك في أنه قدير على ذلك بقوته المرعبة ..

تمساح!... قالها لنفسه وهو لا يصدق .. لقد كانت تنبؤاته صحيحة، لكنه على الأرجح لن يعيش ليعلن أنه عبقري ..

تفتيش منطقة الوحل التي تحدث عنها كامل كانت أشبه بفقرة في فيلم رعب .. لقد ظهرت بقايا المختفين جميعًا.. مهما افترست الشخص فإن بعض أنسجته تبقى ويمكن تمييزها بالحمض النووي.

هكذا عقد اجتماع متجهم طويل، وتم الاتفاق على إخلاء الشط بالذات في منطقة الحوادث السابقة، وعمل بعض الأكمنة مع استخدام طعوم تجذب التمساح.

****

للمرة الثانية يجول كامل وحده. وللمرة الثانية يكون هو المحظوظ الذي يقابل التمساح.

كان الليل قد دنا.. وكان هو يمشي شارد الذهن تقريبًا في ذات البقعة التي سبق أن تم اختطافه فيها منذ برهة. كانت المنطقة خالية من الناس أصلاً ثم إن حظر السباحة في هذه الأماكن كان شديدًا في الفترة الأخيرة، لهذا كان وحده تقريبًا.

كان الضوء خافتًا لكنه استطاع أن يميز الحدود الخارجية لرجل .. رجل يرقد هناك على الرمال على ظهره، ومن الواضح أن معه لوازم الشاي ونارجيلة صغيرة، ويبدو أنه كان ينعم بالرقاد بعد رحيل الشمس وبعد ما بردت الطبيعة قليلاً. على الأرجح هو واحد من الخفراء الذين انتشروا في المكان مؤخرًا.. الأحمق يعتقد أن الحارس لا يُهاجَم أبدًا.

قصص لا تكتمل

١

هكذا تولد الأفكار في الليل وتتبخر في الصباح. كان مصطفى يعرف جيدًا هذا الجو .. لكنه الليلة قرر أن يكتب ويكتب إلى أن يهده التعب. الزوجة نائمة والأطفال نائمون وهدوء البيت القاتل يغري بالعمل. حتى القط يستلقي على الأرض وقد تحول إلى كرة من الفراء.

أعد لنفسه كوبًا من الشاي في المطبخ مع شطيرة من الجبن، ثم اتجه إلى غرفته حيث الكمبيوتر يتسلى بحافظة الشاشة بانتظار القصة القادمة. كانت الأفكار تزدحم في رأسه .. ألف فكرة وفكرة، لكنه لا يعرف أبدًا كيف ينهي هذه الأفكار .. وقد كان يؤمن بمقولة: «لا تبدأ قصة لا تعرف نهايتها». لذا كان يهمل الكثير من الأفكار الجامحة التي لا يعرف إلا الله كيف يمكن أن تنتهي.

رشفة شاي .. قضمة شطيرة .. نفس من لفافة التبغ ..

تأمل المؤشر الذي يومض في ركن الشاشة الأيمن. يرى الفكرة تولد ويعرف السطر الأول وكيف سيكون. يحب صوت مفاتيح الكمبيوتر تنضغط تحت أصابعه خاصة لو تم هذا بسرعة. ستكون فكرة جيدة حتمًا .. ليس لديه تصور عام عن كيفية إنهائها لكنه سيعبر هذا الجسر عندما يصل له ..

ارتجف انفعالاً .. كان يجد من السخف أن يحب المرء فتاة لمجرد أنها جميلة .. الجمال ليس مبررًا كافيًا للحب، لكنه في هذه اللحظة شعر بأنه متأهب ليقع في غرامها ..

قالت له:

ـ سأطلب منك طلبًا واحدًا. طلبًا عسيرًا نوعًا .. لكني سأفعل أي شيء كي تنفذه

لم يكن يرى وجهها .. كان في الظلام ..لكنه سمعها تقول في انفعال:

ـ اسم سلمى قريب جدًا من اسم سالومي .. سالومي رقصت أمام زوج أمها كي يأتيها برأس يوحنا المعمدان .. وقد تم لها هذا فعلاً.. أنا سأفعل شيئًا مماثلاً لو قبلت أن تنفذ ما سأطلبه

سألها في قلق:

ـ وماذا ستطلبين ؟

ـ ستعرفه بعد الرقصة ...

نهض رأفت وارتدى السويتر الذي وضعه على الأريكة جواره، وقال لسلوى معتذرًا:

– طالت سهرتي .. أنا آسف ..

قالت سلوى ضاحكة:

– الوقت الطيب يمضي سريعًا .. كنت أحسبها التاسعة

– صباحًا؟؟؟

وابتسم في خبث، بينما نهض شريف من جلسته الكسول على الأريكة، فبدا واضحًا أن النوم يتسلل إلى وعيه لكنه يقاوم تأدبًا. قال لرأفت:

– هل تنوي أن تغادر الآن؟ لم لا تبقى حتى الصباح؟

قال رأفت وهو يتحرك نحو الباب:

– لابد أنك تمزح ..

انفتح باب الفيلا لتظهر سيارة رأفت الناعسة في الظلام، وقد تغطت بالندى. لسبب ما شعر بأنها صديق قديم ينتظره ليقله إلى فراشه المريح ..

مليء بالبنزين الجميل شهي الرائحة، مع زجاجة بلاستيكية سيقصها لتتحول إلى قمع.

الهاتف يرن .. الحمد لله أن هناك شبكة. الهاتف يرن بإلحاح .. أرجوك أن ترد يا مازن .. أرجوك أن ترد ....

ثم جاء صوت مازن المطمئن يسأل عما هنالك ..

بضع كلمات .. ثم قال مازن إنه سيأتي حالاً ومعه بنزين...

– مازن .. تأكد أولاً من أن سيارتك فيها بنزين!!

ضحك مازن كثيرًا ثم وضع السماعة .. والحقيقة أن هذه كانت المرة الأخيرة التي يتبادل فيها محادثة مع رأفت ....

****

للحظات ظل مصطفى يرمق الشاشة ..

القصة جيدة لكن استكمالها صعب فعلاً. لقد تم حشد القارئ لحدث مروع ..شيء يفوق الخيال سوف يظهر لرأفت حبيس سيارته... أي شيء مثل سفاح أو

كان عاصم يكره البورص ويشعر أنه كائن مقزز، لكنه لم يكن كذلك يجرؤ على قتله .. ستكون عملية مثيرة للاشمئزاز بالتأكيد.

الجو حار في الغرفة، وبالطبع خانق تضيق به النفس. العرق يسيل على جبينه ممزوجًا بالغبار. يبدو أنه سيحتاج إلى حمام قبل أن يغادر الشقة الخالية.

يجب أن يجد الملف .. الملف الذي يحوي عقود شراء الأرض وصحة التوقيع. الأوراق التي فشل في أن يجدها في البيت كله. البيت الخالي على عروشه منذ وفاة الأب. منذ عام مات الأب وقبله بعشرة أعوام ماتت الأم .. ولم يكن أي من الأبناء يعيش هنا. كانوا قد تركوا الأب يعيش وحده لأن أحدًا لا يطيقه. الشيخ الكريه المتشكك الغاضب على الدوام، مع الشيخوخة التي جعلته ينسى النظافة الشخصية، لدرجة أنه كان يقضي حاجته في أي مكان. لم يكن أي من الأبناء يرغب في أن يستضيف هذه الكارثة، هكذا تركوا الأب وحده مع خادمة تدبر أموره صباحًا وترحل مساءً. منذ توفي الأب ظهرت مشكلة العثور على أوراقه .. لم يكتب وصية، لكن ما هي ثروته الحقيقية؟ ماذا يملكه بالضبط؟

تطوع عاصم بأن يفتش البيت جيدًا بحثًا عن الأوراق..

أنا لست مجنونًا .. البيت مسكون ..

٤

أيام طويلة مضت على مصطفى ولا شيء سوى الجدب .. لم يجلس أمام الكمبيوتر قط، ولم يحاول أن يبدأ قصصًا جديدة، فالأمر لم يعد قابلاً للتفسير، وكل ما هو غامض يثير الرعب في النفس.. الرعب قد شل قدرته على ابتكار أفكار جديدة، وقد قدر أنه لو تعرض لذات التجربة مرة أخرى فمن الوارد جدًا أن يجن ..

القصص التي يبدؤها تزول من الوجود بلا تفسير، واحتمال أنه يتصرف من دون أن يعرف احتمال عالٍ جدًا ومخيف جدًا .. أنت تعرف أجواء دستويفسكي، كما أن عقدة فيلم (نادي القتال) لم تفارق خياله قط ..

كلما فكر في الكتابة أصيب بالرعب .. ماذا لو استيقظ ليجد أن هذه القصة الجديدة اختفت؟

قالت له زوجته:

«أنت لا تفعل شيئًا على الإطلاق .. تمضي اليوم كله أمام التلفزيون»

قال الرجل:

«هي ليست مفتوحة .. الحق أنها لا تغلق أبدًا!»

قال مصطفى لنفسه إنه بحاجة إلى فحص نظره .. لو كانت هذه المكتبة مفتوحة طيلة اليوم فلابد أنه معدوم الملاحظة تمامًا. في كل يوم يمر بها أثناء العودة من مدرسة ابنته فلم يرها إلا اليوم ..

«ما هي طريقة الاستعارة؟»

«لا شيء ...لدينا اسمك وعنوانك ونثق بأنك سترجع الكتاب خلال يومين»

وإذا لم أفعل ؟ تساءل في ذهنه .. هذا الشيخ لا يبدو قادرًا على استعادة الكتب التي لا يعيدها أصحابها. حتى الاتصال بالشرطة يكلفه جهدًا فوق ما يطيق ...

ثم أشار الرجل بما معناه أن تفضل .. فمشى مصطفى بين رفوف متلاصقة عليها حشد من الكتب العتيقة. الكتب التي كتب اسمها على ورق لاصق على الكعب شأن المكتبات العامة .. كانت مجموعة مبهرة فعلاً، وإن كان مصطفى واسع الثقافة مما جعل معظم هذه الكتب معروفًا بالنسبة له ..

قال المدير وهو يجلس مسترخيًا:

«لا أستطيع شرح كل شيء .. محاولة تفسير الأمر بالنسبة لك عسيرة، لكن هذا ما نفعله طيلة الوقت .. ربما منذ ميلاد اللغة ..»

«ما الذي تفعلونه ؟»

«هذه هي المشكلة .. لن تفهم أبدًا»

ثم تبادل النظرات مع الجالسين الذين تحاشوا التقاء العيون بمصطفى، وقال:

«لنقل إننا نلاحق الأفكار الجيدة .. الأفكار الصالحة للاستكمال، وفي هذه الشركة لدينا ألوف مؤلفة من البدايات الموفقة»

تساءل مصطفى:

«هل يعني هذا أنكم شركة إنتاج سينمائي ؟»

«ليس بالضبط .. إننا نهدي للعالم الأفكار التي قتلها أصحابها قتلاً.. نحن نستكمل القصص ونضعها في مكانها اللائق على رفوف المكتبة. لو لاحظت لوجدت أن هناك ركنًا ناقصًا حيث

«لا أعرف .. لكنه بالتأكيد شيء قاس أو محرم أو غير قانوني .. هذه هي الأشياء التي تستأهل هذا الثمن ..لن تطلب منك أن تتزوجها .. أنصحك ان ترحل قبل موعد دفع الثمن»

همس د. عدنان في ضيق:

«لربما معك حق، لكن هذه ليست طريقة محببة لسرد القصص . إن هذا يحبط القارئ كثيرًا»

«لكنه حل لا بأس به .. سوف تفرغ هي من عرضها الشائق، هنا توجه لها عبارة شكر، وتعود ببساطة لتنضم إلى رفاقك ... هذه قصة مسلية .. المقلب الذي شربته فتاة حاولت أن تكون سالومي.. سوف يعلمها هذا أن أحدًا لا يدفع ثمن شيء حصل عليه فعلاً.. في المرة القادمة عليها أن تحصل على مطلبها قبل أن ترقص»

ولم ينتظر الباقي .. ترك عدنان يقف في بلاهة يراقب عرض الاستربتيز، ومشي وسط الرمال مبتعدًا...خطر له أن ينظر للخلف، لكن لماذا ؟ سلمى ولدت من أفكاره وليس فيها شيء جديد ..

مشي وسط الرمال لفترة ثم رأى أمامه طريقًا مظلمًا مقفرًا ..

كشافات سيارة واقفة هناك ..

ثم رأى سيارة أخرى تقف على بعد خطوات منها ...

عندما اقترب أكثر أدرك أن هناك سيارة خالية وأن هناك رجلاً يقف في حيرة وهو يحمل (جركن) كبيرًا وينظر حوله .. كان هذا هو راكب السيارة الثانية ..

التقت عيناه في ضوء الكشاف بالرجل، فقال له في رعب:

«لا أجد رأفت صديقي .. لقد جلبت له البنزين كما طلب مني»

بدأ مصطفى يفهم ..

سأل الرجل في حيرة:

«أنت تدعى ما .. ما ..»

«مازن .. أنا محام .. اتصل بي يطلب أن أوافيه هنا وشرح لي مكانه»

ثم استرخى ليستند إلى غطاء السيارة الواقفة وقال:

«كيف تنوي أن تنهي هذه القصة ؟»

المسخ الذي مزق رجلين في ربع ساعة .. ومن الواضح أنه سيمزق الثالث حالاً ....

هرع إلى السيارة الواقفة .. غالبًا هي سيارة مازن، ووثب خلف المقعد وأدار المحرك .. رأى الخاريص يتقدم .. يقف أمام السيارة متأهبًا للوثب .. تراجع للوراء، ثم أدار العجل متهيئًا للفرار ... لكن المسخ ركض بسرعة أكثر وتمسك بالرفرف الأمامي، وبلا جهد تقريبًا رفع السيارة لتصير في وضع شبه عمودي على الأرض .. مرتكزة على عجلتين فقط.

فتح مصطفى الباب الثاني ووثب منه إلى الخارج وتدحرج على الأرض ..

سقطت السيارة بدوي مدوّ لتستقر على عجلاتها الأربع .. بينما عاد المسخ يتجه نحوه ...

هنا على بعد متر منه وجد جركن البنزين الذي تركه مازن في مكانه. زحف نحوه وفتحه ثم هب واقفًا وقذف البنزين كله على الشيء المخيف .. لابد أن علبة الثقاب ما زالت في جيبه .. هاهي ذي !.. بسرعة وبيد مرتجفة حك العود بالعلبة ثم ألقى به مشتعلاً على الخاريص.

وبدأ مصطفى يشعر بأن الغرفة تظلم تدريجيًا .. وشم رائحة الغبار ......

٧

هناك كان واقفًا في الغرفة المظلمة التي أوصد بابها ..

استطاع أن يرى عاصمًا كما تخيله بالضبط .. العرق يبلل جبينه مع الغبار .. تحت إبطيه مبتل تمامًا وهو يحاول فتح باب الحجرة الذي انغلق بلا إنذار ..

على الأرض كانت عظام مبعثرة .. عظام نقية من التي وجدها في الصندوق، وكانت الحيرة مرتسمة على ملامحه ..

«هناك من أغلق الباب علينا!»

بالطبع يستطيع بطل قصته أن يراه ويتفاعل معه، لكنه كان يعرف أن الباب لم يغلق من الخارج .. لقد أغلق من الداخل .. الشيء الكامن في الغرفة فعل هذا ..

هتف عاصم وهو يجذبه من ياقة سترته:

«من فعل بنا هذا؟ ما سر هذه الغرفة؟»

واصل الضربات على المقبض .. بعد قليل تداعى القفل، وصارت النافذة قابلة للفتح .. حرك الضلفتين فتساقطت سحابة كثيفة من الغبار والحشرات .. ثم ظهر شيش خشبي بالٍ ...

لم يحتج لجهد هذه المرة كي يفتح المصراعين، وتسلل النور والهواء أخيرًا إلى الغرفة المقبضة ..

أخذ شهيقًا عميقًا ثم نظر إلى الشارع .. كان هذا هو الطابق الرابع .. الشارع خالٍ ولا أحد يمشي فيه .. من الواضح أن الصراخ بلا جدوى.

نظر أسفل النافذة .. ثم قال وهو يفكر:

«هذا الإفريز تحت النافذة .. لو مشيت عليه في حذر لوصلت إلى (منور) السلم .. »

«لا أحب هذه الفكرة .. أعتقد أننا لو بقينا هنا وحاولنا المزيد من الصراخ ....»

قال عاصم وهو يضع ركبته على إطار النافذة:

«لو بقينا حتى تحل الساعة فلن يسمعنا أحد .. سوف أحاول ببطء شديد ولنرَ».

«ماذا تعنيه؟».

«ألم تفهم بعد أنك قصة لم تكتمل يكتبها مؤلف آخر؟... هو كتب القصة حتى هذه النهاية، ولا أحد فينا يعرف ما سيحدث بعد ذلك .. المؤلف فقط يعرف كيف ينهي الموقف وكيف يخرجك من هنا!».

ثم أشار إلى مقعد جواره:

«لو كنت مكانك لجلست أطالع رواية طويلة ممتعة .. الحرب والسلام أو إيفانهو مثلاً.. إن جلستك هنا سوف تطول على ما أرى!».

تمت

بأن هذا يتفق مع شخصيتها. لابد من اكتمال الصورة. ينظر لوجهها المجعد وشفتيها القاسيتين المزمومتين وهالة الشعر الأشيب وزجاج النظارة الذي تنعكس عليه الأضواء. عندها كان يشعر كأن هذه المرأة هي الموت.

لم تكن صحته على ما يرام. ارتفاع ضغط الدم كان شديدًا وقد أخبره الطبيب أن عليه أن يفعل شيئًا بسرعة. اضطر لخفض وزنه وقلل الملح في الطعام وراح يبلع ترسانة كاملة من غالقات قنوات الكالسيوم وغالقات البيتا. لكن جسده لم يعد يعمل جيدًا.. كان يدرك هذا ويفهمه.. ومع الوقت لم يعد يذهب للمقهى كثيرًا، لأن صعود وهبوط الدرج لم يعد مريحًا... كان يقف أسفل الدرج ويتنهد وهو يفكر في عدد الدرجات التي عليه أن يصعدها. ثم يتوكل على الله ويرفع قدمه.

أما الزوجة فكانت صحتها ممتازة، لكنه بدأ يدرك أن عقلها ليس على ما يرام.

كيف عرف هذا؟.

كانت لا تكف عن الحديث عن الجان والعفاريت.. صارت تراهم في كل مكان من الشقة، وتتحدث عن أنها تراهم في كل ركن وأنهم يتواجدون معها في الحمام. كانت تنثر الملح في البيت في

مرت عدة أيام من الصمت، لكنه بدأ يلاحظ ممارسات أعقد .. هناك كيس الغبار الموضوع على البوفيه. بالتأكيد هو غبار مقابر. لقد جاء دوره منذ زمن، وهو لا يجرؤ على فتح اللفافة ..

ما فعله هو أنه حمل اللفافة وألقاها في صفيحة القمامة وأغلقها، وفي اليوم الثاني كانت زوجته تفتش كالمسعورة عن هذا الشيء المختفي. شعرها الأشيب ونظراتها المجنونة وبدانتها وهي تمشي كالبطة محاولة أن تحرك عظمتي الحرقف .. لكنها والحق يقال كانت تمشي بسرعة وخفة، وكم من مرة فوجئ من خلفه بوجودها. لقد دخلت الغرفة دون أن يعرف كيف ولا متى ..

كان يفضل الصمت، وراح يتردد على المقهى لساعات أطول لدرجة أنه نام ذات مرة وهو جالس على المقعد الخشبي فبردت القهوة التي طلبها. ولم يفق إلا مع لمسة من يد القهوجي على ساعده ..

-«خير يا أستاذ حسن!.. هل أنت مريض؟»

-«أنا بخير .. فقط لم أنم بما يكفي»

صار مع الوقت يخشى لحظة العودة للبيت، خاصة عندما تجلس معه أمام التلفزيون لمشاهدة المسلسلات.. شفتاها تتحركان بكلمات هامسة طيلة الوقت. لم يعرف قط ما تقوله لكنه كان يخشاه ..

سواها في الأعوام القليلة الباقية .. لن يتركها تموت وحيدة ولن تتركه يموت وحيدًا. لربما كان الموت في وجود غول معك في الغرفة أفضل نوعًا من الموت وحيدًا.

ودع رجائي ووعده بأن يهتم بصحته .. ثم عاد في بطء وتثاقل للبيت، وهو يشعر بأن المسافة عدة أميال. المشكلة هي صعود الدرج المتعب .. المشكلة هي نزع الثياب الثقيلة .. المشكلة هي النوم جوار تلك الشمطاء. لكن العشاء ينتظره على الأقل ..

في الأيام التالية صار أكثر بقاء في البيت، وصار ينام على الأريكة

ساعات طويلة وفمه مفتوح من إرهاق.. حتى أنه قدر ساعات نومه بخمس عشرة ساعة يوميًا .. ليس أقل من هذا .. ولم تكن هي توقظه أبدًا ..

هل هي تمارس السحر معه؟ هل تدس له شيئًا في طعامه؟ لم يبدُ له هذا منطقيًا فهي في النهاية لا ترغب في حياة الوحدة .. امرأة مزعجة لكنها بشرية على كل حال ..

الجواب هو أنه يتقدم في العمر .. لا شك في هذا .. الباب الذي في نهاية الردهة بدأ ينفتح ..

«أنا مصاب بجلطة في المخ .. لابد من طبيب أمراض عصبية»

قالت في حزم:

«لا أفهم حرفًا مما تقول .. وفر جهدك .. أنت بحاجة لبعض النوم»

وقبل أن يجد الوقت الكافي كانت قد غابت عن مجال الرؤية .. لقد تركته حيث هو. وأدرك في رعب أنه يبكي بحرارة .. عدم الاستقرار العاطفي يميز جلطات المخ عامة، وقد راح يبكي كطفل في الظلام .. الرعب يغمره والصدمة..

أطفأت النور في الغرفة، ووجد نفسه وحيدًا في الظلام.

**

بعد ساعات من النوم المضطرب المفعم بالكوابيس بدأ يعود لوعيه. لقد صار الأمر ثابتًا وواضحًا .. إنه يمر بالمراحل الأولى من شلل نصفي .. لقد استقر الأمر سواء كان يشكو من جلطة أو نزف فقد صار حقيقة واقعة ..

انفتح الباب وظهرت نوال .. كانت تحمل صينية عليها سلطانية عدة أشياء .. وضعتها على الكومود ثم رفعته بذات القوة، ثم وضعت الوسادة خلف ظهره ليصير في وضع جالس. قال محتجًا:

لنفسه ميتة جميلة .. نوبة قلبية وهو جالس في المقهى وسط الأصدقاء والصخب .. لكن لا يبدو أن هذا ممكن.

لا يستطيع الوصول للهاتف أو طلب العون. ليس له أن يأمل إلا في زيارة من ابنه.

حسن .. أنت وقعت في الفخ .. ألعن فخ يمكن تصوره.

عند المساء – هكذا قدر – ظهرت على الباب وهي تحمل في يدها مبخرة تتصاعد منها سحابة كثيفة من الدخان .. راح يسعل بينما هي تدور في الغرفة وفي فمها لفافة تبغ مشتعلة، ثم وضعت المبخرة جوار الفراش .. رآها تمزق قطعة من الورق على شكل إنسان، ثم تغرس فيها دبوسًا عدة مرات .. رآها مرارًا تفعل هذا من أجل (العين) تقية الحسد، ثم أنها وضعت الورق في المبخرة ليتوهج ويشتعل .. ظلت تراقب الرماد ثم قالت له:

«هذا وجه فاطمة .. أختك .. هي صاحبة العين!»

هو لم ير فاطمة منذ أعوام، ولا تملك أي سبب لتحسده. إنها ثرية وزوجها طيب وأولادها يحبونها .. لديها كل ما يجعله يحسد فاطمة لا العكس ..

سيكون رومانسيًا، وإنك نموذج الشاب المكافح الذي شيق طريقه إلى القمة كما يحدث في الأفلام. كنت صاحب عينين حزينتين شفافتين وكلمات منتقاة بعناية. وقد قالت أمي إنك لا تصلح .. قال أبي إنك لا تصلح .. لكني أصررت على رأيي، واعتقدت أنني سأكون سعيدة مع شخص أكافح معه»

ثم تنفث سحابة دخان كثيفة وتردف:

«صرت أنا مديرة مهمة في التربية والتعليم، بينما ظللت أنت تتعثر كمدرس .. تحاول ان تصنع مالاً من الدروس الخصوصية. كنت تكافح لكنك لا تملك مؤهلات النجاح .. قبل أن أتساءل عما إذا كنت قد أحسنت الاختيار كان الأولاد قد أتوا .. نرمين وعماد .. وانهمكت في لعب دور الأم المخلصة ونسيت نفسي أعوامًا طويلة .. غيبوبة عشت فيها ٣٥ عامًا إلى أن تزوج الجميع وخلا المسرح من المتفرجين. عندها أدركت الحقيقة: أنا أسأت الاختيار»

نظر لها في رعب .. إلام تفضي هذه المقدمة إذن؟ ماذا تحاول قوله؟

رأت الرعب في عينه فقالت وهي تسعل:

يصرخ ..الغوث !... انا هنا يا رجائي .. تعال لتنقذني!.. خذني إلى المستشفى. مد يده السليمة .. بصعوبة استطاع أن يلمس الكوب .. رفع ذراعه ثم ألقى به بقوة.. اصطدم بالجدار فتهشم إلى عشرات القطع. لا شك أن الصوت كان عاليًا جدًا ...

صوت رجائي:

-«هل هناك أحد هنا؟»

قالت نوال في لهجة عابرة:

-«لا شيء .. إنه القط قد أسقط كوبًا بلا شك»

«هل لديكما قط؟»

ضحكت ولم تعلق .. ثم عادت تسأل بصوتها الخشن:

«لم لا تتفضل بعض الوقت؟»

كانت (عزومة مراكبية) طبعًا، فشكرها بحرارة وارتباك وانصرف .. وسمع حسن الباب ينغلق. هذا باب أمل يغلق، فالرجل اطمأن على صاحبه ولن يرجع. لن تكون هناك محاولات أخرى قبل شهر.

فتاة مراهقة .. إن هذا صحيح .. رباه !.. إن هذا صحيح !.. رباه .. أبوه على حق..

ومن مكان ما ظهرت نوال زاحفة كالديناصور .. تجر ردفيها الهائلين والسيجارة بين شفتيها. وقفت على الباب تحاول الفهم بينما هو يكرر في جنون:

-«ثع.. ثع .. ثعبان !»

قالت بلهجة باردة:

-«أنت صرت مخرفًا بالكامل»

ودت من الفراش ووقفت ترمقه للحظة، ثم أنها انحنت ورفعت طرف الملاءة .. لم يعد هناك شيء على الأرض .. اختفى الجسم الأسطواني. قالت له:

-«ثعبان ؟.. أين هو ؟»

الواقع أنه لا يوجد شيء .. لكنه كان متأكدًا من أن حواسه لم تبلغ هذه الدرجة من الهذيان ..

ابتعدت بعض الوقت، ثم أنها عادت للغرفة .. كانت تحمل إناء من البلاستيك و.. وسكينًا .. ومنشفة ....راح يرمقها بعينين

عندما فتح عينه استطاع أن يرى ذلك الشيء على الجدار .. يمشي على خزانة الثياب في رشاقة غير مبال بقوانين الجاذبية .. إنه فأر ! لم يستطع أن يفهم إن كان هذا فأرًا متسللاً أم أن المرأة هي التي أتت به. لا داعي للصراخ فهي سوف تؤكد أنه لا يوجد أي فأر هنا ..

ثمة شيء في الضوء الخافت في مجال عينه ..

التفت ليلقي نظرة .. أدرك أن هذا الشيء هو سكين الفاكهة موضوعة على الكومود الأيمن. سكين مدببة جميلة المنظر. بصعوبة راح يسند يده اليمنى باليسرى إلى أن تمكن من أن يوجهها .. تحررت يده اليمنى ثم بدأت تزحف إلى السكين .. في النهاية أطبقت يده عليها. ناولتها يده اليمنى ليده اليسرى وبعد جهد جهيد استطاع أن يضعها تحت الوسادة ..

الصباح:

كانت قد جاءت حاملة حساء لسان العصفور .. أجلسته في الفراش ثم بدأت تدس الملعقة بين شفتيه ..

-«هل تعرف يا حسن ؟ أنا فعلاً أميل لك بوضعك الحالي .. عديم القوة تعتمد بالكامل علي. أشعر بأنك طفل رضيع وهذا الشعور يروق لي .. أتمنى ألا تشفى أبدًا»

قالتها ولم تضحك .. وجففت الطعام عن شفتيه ولم تنتظر كي يبلع بل دست ملعقة أخرى، ثم قالت:

-«أنت تتحسن بفضل الحجامة .. اليوم سوف آخذ المزيد من الدم ..»

كانت هذه هي اللحظة ..مد يده تحت الوسادة .. أطبق على السكين. انقض على عنق المرأة وقد قرر أنه لا مجال للتردد .. لو لم تمت فهو ميت .. انغرست السكين في عنقها فنظرت له بغباء. أخرج السكين بصعوبة وغرسها من جديد. أنشبت نوال مخالبها في عنقه وجحظت عيناها غضبًا .. لكن فاتها الوقت كي تتجنب طعنة ثالثة ..

سرعان ما تهاوت لتسقط على الأرض وسط بركة من الدم .. أطلقت بعض الضوضاء ثم همدت تمامًا..

تحامل على نفسه حتى سقط من فوق الفراش فوق جسدها البدين .. ثم بدأ يزحف نحو الباب .. لابد أنه زحف ربع ساعة نحو باب الشقة. يجب أن يفتح باب الشقة بأي طريقة لكن كيف؟... كيف يرتفع إلى مستوى المقبض؟ لا يوجد مزلاج لكن هذا لم يحل المشكلة...

هناك رقد خلف الباب يوجه له اللكمات بيده اليسرى ويصرخ ....

لابد أنه فقد الوعي للحظات ..

عندما فتح عينيه من جديد أدرك أنه في مأزق خطير. سوف يموت جوعًا بالتأكيد .. لربما كانت هذه غلطة عمره لكنه لن يندم عليها أبدًا ....

سمع صوت مفتاح يدور في الباب فتراجع للخلف في لهفة ... هذا شخص يملك مفتاح الشقة ..

انفتح الباب وظهر ابنه ينظر لأبيه الراقد على الأرض في دهشة .. لقد عاد من الاسكندرية..

-«بابا .. ماذا حدث ؟»

لكن الأب لم يجب لأنه فقد وعيه ثانية.

تمت

سيمفونية المقصلة

١

الفرقة تعزف آخر فالس لهذه الليلة ..

يقف رمزي بعيدًا في ظل سنديانة عجوز، يدس يديه في جيبيه ويتنهد. عبق أزهار الليل يتصاعد ويمتزج بالموسيقى .. من أجل لحظات كهذه نغني .. من أجل لحظات كهذه ننشد الشعر .. من أجل لحظات كهذه نبكي .. من أجل لحظات كهذه نقبل الموت عندما يأتي أخيرًا.

الأرض تموج بالموسيقى ..لابد أن هذا لحن شتراوس. ليس واثقًا .. كل الموسيقى الكلاسيك تتشابه بالنسبة له. لا شك أنه يحمل عقلاً وقلبًا وأذنًا عربيين فلا يتذوق جدًا هذه الألحان.

مصري يقف وحده في حفل باريسي أنيق. يشعر بمزيج من النشوة والخجل والألم. تمضه الوحدة .. هناك في ساحة الرقص يمضي راقصو الفالس في دورات رشيقة . فتيات منتشيات ورجال حالمون. الكل لن يعاني الوحدة هذه الليلة ما عداك في تلك الشقة الصغيرة القريبة من شارع سان ميشيل. باردة كئيبة ..

شد ما يتألم .. لكنه ألم شهي محبب .. ألم يحب أن يجتره ويشعر به.

إنه زهرة حائط .. التعبير الذي يتحدث عن أشخاص يقفون وحيدين في الحفلات يراقبون الحياة ولا ينغمسون فيها. نظر لساعته وقدر أن عليه اللحاق بآخر مترو وإلا لاضطر إلى استئجار سيارة أجرة باهظة..

هنا دنت منه بريجيت ..

كيف عرف أنها بريجيت؟ لأنه من المستحيل ألا يكون اسمها كذلك.

رقيقة نحيلة لها أجمل وجه يمكن أن تراه في حياتك. الوجه الذي سيتفق عليه كل البشر ولن يتدخل الذوق الخاص فيه. ملاك ...

تحمل كأسًا وتلبس ثوب سهرة طويلاً شفافًا لكنه ذو ياقة منفوشة سابغة. الفتاة الوحيدة التي تغطي نحرها في الحفل كله. عينان لهما لون مستحيل.. هل هما زرقاوان أم رماديتان؟ زهرة حمراء حيث كان ينبغي أن يكون الفم.. لاحظ في دهشة أن يديها كبيرتان .. على الأقل أكبر مما يوحي به وجهها الرقيق ..

تقول لرمزي بفرنسية ساحرة:

-«أنت وحيد مثلي .. هل تمنحني هذه الرقصة الأخيرة ؟»

كالمسحور يأخذ منها الكأس ويضعه على إفريز النافذة التي يقف جوارها ثم يمسك بيدها الزجاجية القابلة للكسر. يرفعها ويتقدم معها ليبحرا في عالم الموسيقى ..

احسدوني .. انظروا لي في دهشة ....

أنا انتظرت حتى ظفرت بما هو أفضل وأروع ....

الحلم يستمر.. وهو يفكر في أن هذا كله سينتهي بطريقة ما. للأسف سوف ينتهي اللحن .. للأسف لم يستطع شتراوس كتابة سيمفونية أبدية ..

كل ما حدث بعد هذا كان أقرب للحلم ..

سيارتها.. الكلب الصغير .. حديقة الفيلا في ضوء الكشافات .. البيت الواسع .. أنت وأنا فقط ... هناك وقف عند المدخل وانحنى ليلثم عنقها. اشتهى هذا طويلاً منذ كانا في الحفل ..

فيما بعد سيحكي لها عن مصر وعن الدلنجات مسقط رأسه وعن أمه وأخته وهجرته لفرنسا و.. و.. هو الآن ثمل بنشوة الحب ولا يقدر على الكلام.

في حذر ورفق أبعدت شفتيه عن عنقها وهمست:

-«لا .. لا .. لو أردت أن تكون في عالمي فلا تحاول هذا ..»

كان هذا مخيبًا للآمال، وخطر له أنه تعجل جدًا .. لقد تصرف كحيوان غير مهذب ..

قالت له وهي تنظر في عينيه:

-«ادخل واجلس وتكلم .. لكن لا تحاول هذه الأشياء..»

-«ولكن .....»

-«هذا بيتي وتلكم شروطي وقوانين لعبتي»

التزم الصمت وخطر له أن اقترابه منها نصر كاف..

****

دومينيك دو جالفان تستند على حافة العربة التي تجرها الخيول. السجن قد قضى على جمالها لكن كبرياءها وترفعها كانا فاتنين.. ثيابها ممزقة لكنها تمنحها طابعًا خاصًا..

بعنق عال وشعر محلول يغطي كتفها ترمق الرعاع كريهي الرائحة الذين يملئون الشوارع. معها في العربة ماركيز منهار تمامًا وشيخ هده القنوط وامرأة باكية. هذه المشاهد كانت تمنح

الجماهير نشوة ما بعدها نشوة. كانت قد عرفت أن ماري انطوانيت أعدمت أمس. هكذا عرفت أنه لا أمل لها. لكنها لن تمنح الناس لذة مشاهدتها وهي ترتجف.

هناك في ميدان الكونكورد بباريس تقف المقصلة الرهيبة.. هدية د. جيلوتين للعالم. نصلها ملوث بدماء جافة والعلم ثلاثي الألوان يرفرف جوارها..

وقفت العربة فتصايح الناس فرحًا نفس صراخ الرومان عندما كانوا يلقون المسيحيين للأسود. ثم ظهر أهم شخص في المسرحية: الجلاد بقلنسوته التي تكشف عن عينيه فقط وعضلاته الهائلة.

لسبب ما بدأ الوجبة بدومنيك.. اقتادها من العربة وربط ذراعيها برباط جلدي . ثم إنه حملها إلى الآلة الرهيبة.. شهق الناس من النشوة ..

كانت هي تنظر في ثبات إلى السلة الملوثة بالدم الجاف بعد عمليات أمس. لم تشعر بأن النصل ارتفع في السماء ثم أزاح الجلاد الترباس فهوى النصل الثقيل .. وهوب .. سرعان ما رقد الرأس المتمرد في السلة ..

مد الرجل يده وقبض على الشعر ورفع الرأس ملوحًا فتعالى التهليل والصراخ.

ثم أنه ألقى بالرأس في السلة ..

بعد دقيقة ظهر رجل أصلع له شعر طويل يتدلى على كتفيه ويلبس المونوكل. مد يده ينقد الجلاد شيئًا، وفي لحظات انتقل الراس من السلة إلى كيس من خيش يحمله الرجل.

بعد دقيقة كانت عربة تجرها الخيول تحمل الرجل وصيده الثمين عبر شوارع باريس القذرة الفقيرة. الحوذي يلهب ظهور الخيل بالسوط ويسبها بأقذع السباب

..

توقفت العربة في زقاق حقير فوثب منها الرجل، وفتح بابًا خشبيًا في بناية من طابقين وانسل إلى الداخل. هناك كان مختبر صغير تنيره الشموع وكان شاب في العشرين يصب بعض السوائل في قوارير اختبار، فلما رأى العالم هتف:

-«د. رانفييه !.. أنت نجحت !»

قال الأصلع وهو يلهث:

«ليس بعد .. لقد تأخرنا جدًا»

ثم أمر الفتى بأن يحضر الجهاز الذي ابتكره وهو جهاز يتكون من مجموعة من الخراطيم يتصل بها جهاز زنبركي بقلب ساعة.
مهمة هذا الجهاز أن يضخ سائلاً رائق اللون في نظام الخراطيم.
وبيد مرتجفة متلهفة راح الطبيب يشرح الأوردة والشرايين الخارجة من عنق الفتاة.

٢

سألته بينما أشعة الشمس تغمر الغرفة:

-«هل أقدم لك الإفطار وعصير البرتقال ؟»

كان رأسه محاطًا بسحب دخانية كثيفة، وأحس بأنه بحاجة للبرتقال فعلاً.. ربما قهوة قوية نفاذة الرائحة أولاً. قال لها إنه يرحب ببعض القهوة ثم أراح رأسه على الأريكة المريحة .. ليلة دسمة حافلة برغم أنه لم يلمس سوى يدها. لقد كان وجودها هو كل شيء.. كأنه شرب وسكر وارتوى واستحم في نهر فردوسي.

الشمس تتخلل باقة من الأزهار فوق المنضدة، وكأسًا زجاجية ودورقًا من الكريستال ..

تذكر أنه لم يسألها عن اسمها .. لقد قرر أنه بريجيت لأنها لا يمكن أن تكون سوى بريجيت. لكن هذا تفكير غير واقعي البتة. الأغرب أنها لم تسأله عن اسمه .. قال لها:

-«رمزي»

رفعت حاجبيها في دهشة فقال:

-«اسمي رمزي .. أعتقد أنني لم أقله قط»

تحسست جبهتها مفكرة بعض الوقت ثم قالت:

«بصراحة لا أذكر إن كنت قد قلته لي. الأسماء لا تهم .. هذا أنت وهذه أنا .. كلانا يشعر بوحدة قاتلة وكلانا بحاجة للآخر»

قال لها:

-«لكنك بحاجة إلى معرفة خلفيتي كما في السينما .. من أنا ؟ من أين جئت ؟ ماذا أريد ؟.. أنا أيضًا أريد أن أعرف من أنت ومن أين لك هذه الفيلا ولماذا تعيشين وحدك ؟»

رفعت يدها لتسكته .. يدها كبيرة الحجم فعلاً بشكل ملفت.. وقالت له:

-«ثمة وقت لكل هذا، لكن لا تفسد لعبة الغموض الجميلة هذه. سوف نستنتج الأمر خطوة بخطوة .. مثلاً أنا عرفت اليوم أن اسمك رمزي وأنك فضولي كالقطط .. هذه بداية»

****

كان البروفسور رانفييه يستكمل توصيل الشرايين والأوردة بيد مرتجفة. هكذا صار الرأس المقطوع جزءًا من دائرة سريان سائل منتظمة ..

«اعتمدت كثيرًا على نظريات الأحمق لافوازييه»

ثم أنه وضع الرأس المقطوع في وعاء معدني صغير. وأحاط الوعاء بالشموع. أدار بعض التروس فبدأت المضخات تعمل .. وسُمع هدير عال ..

-«أنا أخلق دورة دم صناعية لهذا الرأس. وسؤالي هو : هل هو حي ؟ هل ما زال قادرًا على الحياة ؟»

قال الشاب بعينين لامعتين:

«الحق أن هذا أكثر ما رأيت في حياتي إثارة .. لكني لا أملك أسئلة .. لقد غادرت الروح هذا الجسد .. لا يمكن لشيء أن يعيدها للحياة. رحل السر المقدس»

ظل د. رانفييه يراقب الوجه بعض الوقت. ثم جاء بشمعة وقربها من العين .. بدت عليه خيبة الأمل ومط شفته السفلى. دقيقتان !.. لو كان شيء سيحدث لحدث فعلاً....

فجأة دارت العينان الناعستان في المحجر وتقلصت ملامح الوجه .. انتفض الطبيب .. فقال الشاب:

-«تقلصات الموت .. هذا شيء معروف. كما أن التحديق في جثث الموتى لفترة طويلة يوحي لك بأنها تتحرك»

لكن الطبيب قرب الشمعة أكثر، وراح يتأمل الوجه. كان في هذه اللحظة بالضبط يخطو عند الحدود الفاصلة بين الحياة والموت .. بين الوجود والعدم. لكنه لم يكن مؤمنًا ... كان قد قرأ فولتير في نهم وعرف أنه لا شيء يسمى الروح .. كلها ظواهر كيميائية فسيولوجية.

الآن ينفتح الفم .. محاولة واضحة لنطق شيء .. ليس هذا هو التصلب الرمي . الأمر أكبر من ذلك وأخطر. ثم انغلق الفم ولم يخرج صوت ..

قال في انبهار وقلبه يرتجف:

«لا توجد رئتان لهذا هي غير قادرة على الكلام. لكنها تسمعنا وترانا»

ارتجف الفتى وشعر بالشعيرات تنتصب على ساعديه. معنى هذا أنها تشعر .. بم يشعر المرء وهو رأس مقطوع فوق طبق؟ ترانا وتسمعنا وتفكر .... تقول لنفسها إنها ما زالت حية ..

هكذا راح الطبيب يستكمل الجهاز .. نظام لإذابة الأكسجين في السائل الصناعي الراقي الشبيه بالدم، وطريقة للتغذية .. يمكن لهذه الدورة أن تستمر للأبد ..

قال وهو يصدر فحيحًا بسبب الربو:

-«نحن غيرنا التاريخ .. »

في ضوء الشموع تراجع الفتى راجفًا .. كل هذا لا يطاق .. كل هذا لا يوصف .. إن النوم بعد مشاهد كهذه مستحيل. قال للعالم:

-«قد برهنت عن وجهة نظرك يا سيدي .. الآن حان الوقت كي ندفن هذا الرأس.»

نظر له رانفييه في جنون وهتف واللعب يطير من شدقيه:

-«هل تمزح ؟.. التجربة قد بدأت !!!»

طال الجدل فلم يستطع الشاب سوى أن يشرب كوبين من خمر قوية، ثم غادر المختبر الرهيب لينام. يمكن أن تتخيل كيف كان

نومه مع العرق والكوابيس.. لقد قطع رأسه ألف مرة ودبت فيه الحياة مئة مرة، وفي الصباح دعا الله أن يكون هذا كله كابوسًا.

لم يكن هذا كابوسًا .. ضوء الشمس يغمر كل شيء والناس يمشون في الطرقات يتبادلون الشتائم. نهض إلى المنضدة جوار الفراش فصب لنفسه المزيد من الخمر واقتطع لنفسه قطعة خبز.

ماذا كان اسمها؟ دومينيك .. دومينيك دا جالفان ..

من هي ؟ لماذا أعدموها ؟

قرر أن يخرج إلى السوق ويتشمم الأخبار. ذهب إلى الحانة في ساعة مبكرة وبحث عن أحد القادة الثوريين يجلس وقد لف ساعده بالراية المثلثة، فجلس بجواره وهتف:

-«صباح الخير أيها المواطن ..»

ثم دعاه إلى بعض الجعة. ودار حوار طويل عمن أعدموا أمس ..

بعد نصف ساعة كان يجري في الشارع قاصدًا مختبر البروفسور المخبول .. قرع الباب بجنون ففتح له الرجل وهو بعد بجلباب النوم. لم ينم بعد..

دخل الفتى ليجد أن العالم يجلس أمام الرأس المقطوع، وقد فتح كتابًا من الشعر وراح يقرأ له. لقد أجرى حشدًا من التجارب دوّنها جميعًا، ومن الجلي أن في جعبته الكثير ..

قال الفتى لاهثًا:

«سيدي .. يجب دفن هذا الرأس ..»

قال العالم في ملل:

«قل لي شيئًا جديدًا يا جان»

أردف الفتى وهو يجلس:

-«رباه!.. لا أستطيع الكلام أمام هذا المسخ .. لقد تحريت عنها. اسمها دومنيك دا جالفان .. قالوا لي إنها كانت صديقة الكونتيسة روزنبري وكانت المركيزة تلجأ لها في شئون .. شئون ..»

-«شئون ماذا ؟»

اتسعت عينا الشاب وهتف:

-«شئون السحر الأسود .. كانت عرافة، وكانت تستعين بجثث الموتى في سحرها، كما أنها كانت تقيم القداس الأسود حيث ترقص عارية ثم تذبح طفلاً تستحم بدمه»

كانت الثورة الفرنسية علمنية ولا تؤمن بهذه المقولات، لكن ذعر الشاب كان كاسحًا ...

-«سيدي .. هذا رأس خطر ويجب تركه يستريح في التراب»

ثم ارتجف عندما نظر للرأس .. كانت العينان تنظران له نظرة ثابتة كريهة، ورأى شبح ابتسامة في ركن الفم ..

-«هي تسمعنا يا سيدي .. تفهم كل شيء»

قال العالم وهو يضع قطعة من القماش على الرأس لتداري العينين:

-«أعترف أن نظراتها مزعجة .. ليس من المريح أن يتكلم المرء بينما رأس مقطوع يصغي له»

ثم هتف مداعبًا:

«هل تفهمين ما نقول أيتها الحسناء حقًا ؟»

وثب من الرعب عندما تقلص الفم .. ومن بين الشفتين وبلا صوت وبلا هواء خرجت حروف مكتومة تقول (نعم).

٣

في الأيام التالية – لك أن تتصور هذا – صار لرأس الأخت دومينيك حضور ثقيل مرعب في المختبر. للحظات يخيل لك أن هذا رأس أقيم حوله مختبر.

كان من الواضح أنها تسمع وترى وتفهم .. فقط هي عاجزة عن الكلام، وكان النظام الذي ابتكره د. رانفييه محكمًا فعلاً.. الدورة مستمرة بشكل صناعي دائم وتنقية السائل مستمرة .. لا أعرف كيف تنتهي حياة هذا الشيء، لكني أعتقد أنه باق للأبد .

كان هذا يثير الكثير من التساؤلات الميتافيزيقية .. وقد تساءل الشاب في رعب:

«هل يعني هذا أن الروح حبيسة هذا الرأس؟ لماذا لم تغادر الجسد لحظة قطع الرأس؟ وكيف يمكن أن تغادر هذا الرأس يومًا؟ لا يمكن لشيء من لحم ودم أن يكون خالدًا، ولكن كيف يمكن أن تموت هذه؟»

قال العالم في إصرار وعناد:

«لا توجد روح .. هذه تفاعلات كيميائية وطالما بقيت مستمرة فلسوف يظل هذا الرأس حيًا»

كان الرأس منهمكًا في لعق شفتيه كالقطة التي انتهت من التهام فأر. والحقيقة أن العالم لم يقاوم بعض الإغراءات مثل أن يضع قطرات من الخمر على الشفتين. بالطبع لن يحدث ابتلاع لكن تأثير القطرات وصل لرأسها بالتأكيد، وبالتأكيد تذوقتها.

المشكلة بالنسبة للشاب صارت ضميرية ..

أولاً تحولت حياته إلى حشد من الكوابيس، وصار يخشى ساعات الليل لأنه لن يجرؤ على النوم ليرى ما سيراه في الحلم، ثم أنه كان يشعر بأنه يهوذا وأنه يحمل آلام وخطايا الكون كله على كاهليه. كان منبهرًا بالبروفسور، وقد كان يجد في خدمته لذة عظمى، لكن الأمر اليوم تحول إلى شيء مريع .. صار يكره ساعات النهار التي ستقوده إلى المختبر حيث ينتظر الشيء على المنضدة جوار الشمعة.

يكره رائحة المختبر، ويكره الإضاءة الخافتة ورائحة السائل اللعين الذي يستخدمونه في الدورة الصناعية.

في النهاية قرر أن يترك خدمة البروفسور .. لم يكلمه ولم ينذره أو يطلب ما بقي له من مال. فقط كف عن الذهاب إلى المختبر وترك البروفسور يبحث جاهدًا عن شخص يساعده.

لكن هذا لم يبعد الكوابيس ..

لم يبعد الشعور بالذنب والشعور بأنه هرطيق ..

لم يبعد أسوأ الاحتمالات التي خطرت له.

هكذا جاء اليوم الموعود.

كان يملك مفتاح المختبر .. وكان يعرف مواعيد خروج البروفسور. لذا أحضر زجاجة من الكيروسين وبعض الكبريت .. تأكد من أن أحدًا لا يراه، وكانت الساعة الثامنة مساء .. وقت ذهاب البروفسور إلى الحانة. فتح الباب ووقف يشهق الهواء الفاسد ..

كان الرأس هناك، وقد حرص على أن يلتف بعيدًا عن مجال رؤيتها لأنه لن يجسر أبدًا على مواجهة عيني كائن يعرف أنه سيحترق.

بدأ يسكب الكيروسين حول المنضدة وفي كل أرجاء المكان. وشعر بأن الرأس يحاول الالتفات في المكان الذي وضع فيه. لن تتألم إلا عندما تصل النار للرأس، أما الباقي فلا توجد أعصاب ولا أطراف. لن يكون هناك ألم. سامحيني يا فتاة ..عندما تتحقق لك الراحة النهائية في التراب ستدركين أنني فعلت هذا من أجلك ..

وقف يرقب المشهد .. بقيت النار كي تكتمل اللوحة المخيفة التي لن تفارق خياله أبدًا.

**

هكذا اعتاد رمزي أن يزور بريجيت – التي يعتقد أنها كذلك – كل ليلتين أو ثلاث ليال. هناك يجتاز الحديقة فيتواثب الكلب حوله في مرح.. لقد صار من أبناء الدار أو السيد الوحيد ..

هناك كانت تنتظره عند المدخل فيلثم شفتيها بطريقة عملية عابرة. لو أبدى حرارة أكثر من اللازم لنهرته. كل شيء معها رسمي متخشب حتى القبلات، لكنه برغم هذا سعيد معها ..

وفي الداخل كانت تعد عشاء بسيطًا يتناولانه جوار المدفأة، أو تدعوه للخروج في سيارتها إلى ناد ليلي أو مطعم ما .. باريس في الليل تبدو كمهرجان بصري ساحر. لكنك لو كنت وحيدًا تمنحك باريس أتعس لحظات ممكنة، بينما لو كنت عاشقًا فأنت على شفا أن تمسك بالسعادة ..

قالت له وهي تجرع جرعة من النبيذ الفوار:

«أنا سعيدة بلقائنا .. ولهذا سأقدم لك هدية صغيرة»

«وما هي؟»

«اسمي بريجيت!»

نظر لها في ذهول .. لا يبدو أنها تمزح أو تكذب، ولم يكن يعرف من قبل أنه من الشفافين.. صدفة غريبة بحق ..

انفجرت في الضحك لدى رؤية التعبير الأحمق على وجهه، وقالت وهي تشرق بالنبيذ:

«يا لدهشتك !... أنا لا أعبث بك .. كل هذا حقيقي وقد بدأت أعتقد أنني أميل لك»

شعر بقلبه يخفق .. الإضاءة خافتة والأحلام طفلة تعوي تبغي الدفء والغذاء ..

قالت بريجيت:

-«أنت لم تعرفني بما يكفي .. لا تعرف مئات الأشياء عني، ورهاني هو أنك لن تصر على معرفتي عندما تعرف كل شيء..»

«هذا مستحيـ ...»

قالت ضاحكة:

-«يا لحماسة العرب ..!... كنت أدرك أنك ستقول هذا .. وأدرك كذلك أنه غير صحيح»

ساد الصمت، وظل يرمقها وهو يعبث بالسكين في قطعة الخبز. ليس هذا أفضل وقت يقابل فيه المرء فتاة مولعة بالغموض تلعب هذه الألعاب طيلة الوقت ..

ترى ماذا تدارين يا فتاة؟

****

الفتى لم يجد الوقت الكافي ليفهم ..

لم يشعل الكبريت ..

فجأة شعر بأن ثقلاً هائلاً يهوي على رأسه.. أصدر أنينًا واستدار للخلف ليجد أن البروفسور رانفييه يحمل مطرقة هائلة، و

يتأهب لتسديد الضربة الثانية ..

لم يستطع أن يستكمل فهم المشهد .. الجنون في العينين في ضوء الشموع .. العرق الذي يغمر الوجه .. تعبير الكراهية المفترس ... كان قد سقط أرضًا قبل أن يفهم ..

«الخنزير!»

ووجه البروفسور ركلة إلى خاصرة الفتى، ثم أطلق سبة أخرى:

«يريد هدم أهم كشف عرفه العلم..»

كان البروفسور يتكلم، وهو يتجه إلى رف الأدوات على الجدار .. بحث حتى وجد منشارًا عملاقًا.. ثم بحث عن زجاجة دواء مخدر ..

لم يكن يعرف ما يقوم به .. لكنه كان يفعله..

فقط كان يدرك أن العينين أمرتاه .. الرأس المستقر في الوعاء وسط الخراطيم نظر له .. وهذه النظرة كانت كافية ...

الليلة كانت أطول ليلة في تاريخ البشرية .. وكانت أبشع ليلة كذلك ...

بالمنشار قطع رأس الفتى المخدر لكنه تخلص منها في القمامة. ما فعله هذه المرة هو أنه قام بتثبيت دورة الخراطيم إلى جسد الفتى ... استغرق هذا عدة ساعات ..

وضع الشموع من حول الجثة وجلس على الأرض وقد تلوث قميصه ووجهه بالدم، وكان يلهث ... لحسن الحظ أن الضربة جاءت على الرأس فلم يتأذ الجسد كثيرًا ..

دومينيك .. أنا فعلت ما أمرت به ..

كان يقولها وهو ينقل رأس دومنيك بحذر ليثبته فوق الجسد العضلي للفتى ....

٤

لابد أن الأمر استغرق عشر ساعات من العمل المتواصل.. الخياطة باستخدام عدسة على ضوء الشموع. هكذا أشرق الصباح ثم عاد الليل .. البروفسور لم يأكل وإن نهض لتناول كأس من الخمر من وقت لآخر.

لابد أن المشهد كان شنيعًا، ومن حسن جدنا أننا لم نره..

أخيرًا بدأت الصورة تتضح.. وإن كانت تقنيات الجراحة البدائية لم ترفق بالجلد. بدت الفتاة بدائرة قبيحة حول العنق كأنها مذبوحة. قام بلف قطعة من الشاش الدامي حول العنق لتخفي المنظر. وعندما انتهى كل شيء نهض إلى مقعد قريب فارتمى عليه وراح يتنفس لاهثًا.

أنت لا تنقل رأس إنسان كل يوم، لكنه كان يؤمن بأنه عبقري وقد استخدم مادة لاصقة للأعصاب ابتكرها بنفسه، وهي قريبة جدًا من مادة بوليثيلين جليكول التي اعتقد علماء عصرنا أنها قادرة على لحام الرؤوس بالأجساد.

لابد أنه نام يومًا أو يومًا وبعض يوم من فرط الإجهاد. غرق في غيبوبة مرهقة من الكوابيس.. لم يعد يعرف أي شيء حقيقي وأي شيء كابوسي. للحظات خيل له أن الجسد ينهض، لكنه لم يستطع التأكد قط.

فقط بعدما استعاد وعيه ونهض وسط الدم المتخثر الذي غطى يديه ووجهه وأرضية المختبر، أدرك أنه وحيد فعلاً...

الأغرب أنه اكتشف أن الآلة التي تجري دورة صناعية موجودة كما هي. لقد تركتها دومينيك. هذا يعني أن ما يسري في عروقها ليس دمًا وليس ذلك السائل الحيوي الغامض الذي ابتكره.. هذه المرأة تتحرك بقوة غامضة .. تتحرك بالسحر!

هذه لحظة عجيبة من زواج السحر والعلم للوصول لشيء مخيف غير معتاد ..

بدأ البروفسور يفيق .. قام بتنظيف الفوضى العارمة التي صنعها.. في قرارة نفسه كان يشعر بأن هذا كله كان حلمًا مخيفًا ...

ظل يعتقد هذا حتى عاد الشيء في المساء، وحتى أطبقت اليد القوية على عنقه فعوى كالكلاب ثم مات.

لم يكن للبروفسور مكان في هذا العالم الجديد .. عالم دومينيك دو جالفان. وبشكل ما كانت تشعر بأنه يستحق ما حدث له، لولا فضوله العلمي القاسي لكانت تنعم بالراحة تحت التراب كهيكل عظمي.

هكذا تمدد على أرض المختبر وقد تهشم عنقه. أمسكت دومينيك بالجثة من قدميها واتجهت بها إلى ركن الغرفة.

كانت العملية قاسية طويلة، وفي النهاية اندفعت عربة ذات خيول يقودها حوذي مخمور نحو نهر السين، وفي مكان مظلم تعاون اثنان.. أحدهما قوي البنية ضخم والآخر هو الحوذي المترنح .. تعاونا على إلقاء كيس مليء بشيء ثقيل في النهر.

في ذلك العصر كانت القذارة عنوان كل شيء، وكان من الممكن أن يغطس شيء كهذا في السين فلا يظهر ...

مدت دومينيك يدها تنقد الحوذي المال.

كان الحوذي يرتجف رعبًا من هذا العميل غريب الأطوار. له أجمل وجه يمكن أن تراه.. وجه ملاك حقيقي.. لكن جسده قوي

مزدان بالعضلات والشعر. الأغرب كان الصوت الذي يخرج من الحنجرة ..صوت فتاة بلا شك في ذلك ..

على كل حال لم يكن ليطيل الأسئلة. سوف يحصل على مال يتيح له المزيد من النبيذ لهذه الليلة. جريمة؟ نحن في عصر دموي تتناثر فيه الجثث في الشوارع، فلن تغير جثة إضافية الأمور.

ومنذ ذلك اليوم الرهيب صار مختبر البروفسور هو مسكن ذلك الكائن العجيب الذي جاء من عدم.

لاحظ الجيران ذلك الشاب الصموت ذا الوجه القسيم. كان مدثرًا بالثياب ويضع على كتفيه معطفًا رثًا واسعًا، ويلف عنقه بالشاش .. وكان قليل الكلام. لا يظهر إلا مع قدوم الليل حيث يخرج لشراء بعض الخبز والجبن والنبيذ . لم يكونوا يعرفون من هو، لكنهم كانوا سعداء بالخلاص من البروفسور رانفييه غريب الأطوار .

ماري كلير تعمل بأقدم مهنة في التاريخ.

قبيحة جدًا ملطخة بالمساحيق، يمكنك أن تشم رائحتها من على بعد أمتار. الاستحمام ترف بالنسبة لفتاة مثلها. هناك تقف عند ناصية شارع بيجال تحت مصباح كيروسين وقد ارتدت ثيابًا المفترض أنها مغرية، وهي تروح وتجيء منادية الزبائن.

كان حظها من المال لا يختلف كثيرًا عن حظها من الجمال، وكانت تتساءل إن كانت هذه أقذر مهنة في التاريخ أم أن هناك مهنًا أقذر.

منذ ثلاثة أيام لم يظهر زبون واحد، وقد بدأ الجوع يعذبها .. عندما تعود لغرفتها الحقيرة في الصباح تفتش في بقايا الخضروات العفنة التي تخلفت من البائعات أمس..ثم تعد لنفسها وجبة تبقيها حية.

هذه ليلة عجفاء أخرى ..

هنا سمعت من يناديها همسًا. نظرت للخلف فرأت في ضوء مصباح الكيروسين ذلك الوجه الوسيم .. أجمل وجه يمكن تصوره كأنه وجه فتاة من الحوريات. لكن الجسد قوي عضلي مشعر. يدنو منها وبصوت خافت غير واضح يهمس:

«عندي .. بيتي قريب من هنا»

لماذا يتكلم بهذا الصوت الغريب؟ ثم قدرت أن لديه مرضًا في الحنجرة. هكذا تمت الصفقة بسرعة ووجدت نفسها تمشي وراءه عبر الأزقة شاعرة أنها محظوظة .. ليس لأنه سيمنحها بعض المال فقط، بل لأنه أول شخص ذي منظر مقبول تقابله في هذه المهنة ..

هناك فتح ذلك الباب .. دخلت لتشم رائحة لم ترتح لها. كان المكان أقرب إلى مختبر مهجور وكانت رائحة الكيماويات طاغية فعلاً.. هناك ظلام وغبار، لكنها كانت قد اعتادت القذارة فلم تعد تشمئز منها.

كان هناك فراش

على الأرض، فجلست عليه وراحت تنزع جوربها، بينما بدأ الرجل ينزع معطفه ..

ناولها زجاجة من الخمر جرعت ثلثها مرة واحدة، ثم قال وهو يواصل نزع ثيابه:

«لا أدري إن كان من واجبي أن أخبرك ببعض التفاصيل، لكن لا أعتقد أنني سأشعر براحة ما لم تعرفي الخلفيات ..»

-«أي خلفيات؟ عم تتكلم؟ أنا هنا لغرض محدد فانته لأن وقتي ثمين».

بالطبع هي لا تملك سوى الوقت .. لكنها تحاول رفع قيمة بضاعتها. كان الفتى ينزع قميصه وهو يقول:

«المشكلة في أجسادنا كبشر هي أنها تبلى .. مهما بلغت الدقة العلمية أو قوة السحر فلابد أن يضمر الجسد.. هنا يواجه المرء ضرورة الاحتياج إلى جسد جديد»

ثم فك الرباط حول عنقه .. أصابها الذعر .. هذا عنق مقطوع وتمت خياطته لا شك في هذا. الرأس رأس فتاة جميلة والجسد جسد رجل كامل الرجولة ..

أصدرت أنينًا وحاولت أن تقوم لكن ساقيها كانتا واهنتين .. فقال لها:

«لقد بدأ المخدر يعمل .. هذه آخر علاقة لك بهذا الرأس .. عندما تصحين من النوم سيكون اسمك دومينيك .. دومينيك ستكون متناسقة ، لها وجه امرأة وجسد امرأة.. لا تقلقي .. أنا صرت قادرًا على عمل هذه العملية بسهولة ودون عون. هذه مزية أن يكون المرء مجيدًا للسحر..»

كادت تتكلم لكن الظلام كان قد زحف ليحيط بها من ست الجهات ...

٥

لو أن رجلاً قوي الملاحظة تابع المختبر لفترة، لرأى من تخرج وتدخل في ساعات عدة ... الغريب في الأمر أن الفتاة صارت

أقرب إلى الرقة وصار حجمها أصغر .. فتاة لها وجه حورية ومن الواضح أن جسدها لا يقل جمالاً.

دومنيك تخرج في الصباح لالتقاط رزقها في السوق. تعمل أي عمل في أي مكان حتى المساء، وفي الليل غالبًا ما تعود بزبون إلى المختبر ..

لاحظ الناس أنها لا تندمج بأحد ولا تتكلم مع أحد، بل إنها لم تنزع الوشاح الثقيل الذي تلفه حول عنقها قط ....

تثير فضول النساء في العمل، لكن شيئًا في وجهها كان يقضي على فضولهن .. لم يكن أحد يحب أن يتعمق في أسرارها أكثر من اللازم.

لو كان هناك من يتابع دومنيك بكاميرا من طراز Time lapse لأدرك أن حجمها يتغير أكثر من مرة. هناك من يتعامل معها فيلاحظ أن يدها أكبر من المعتاد أو أصغر من المعتاد. لكن الناس لا تعلق أهمية كبيرة على أمور كهذه ..

تدور الأيام ..

لقد ولى الماضي وولت معه أيام السعد، عندما كان بوسع أي شخص أن يقتل أي شخص ولا يلاحظ أحد. صارت القوانين

ونظام الشرطة أكثر صرامة .. وقلت التحولات في وجه دومنيك ..

لا يعرفون عنها الكثير. لكن المسنين يصرون بشكل غامض على أنها لم تشخ قط .. طيلة حياتها لها نفس الملامح .. أثار هذا خيال البعض عن قصص الساحرات لكن بالطبع لا يمكن أن يصل الفضول بالناس درجة كتاب مطرقة الساحرات، وصيد الساحرات القديمة ...

تدور الأيام .....

****

كان رمزي يتأمل جدران الفيلا.

لم يكن خبيرًا في الفنون جدًا لكن بعض اللوحات راقت له، ولم يعرف أن هذه لوحات تأثيرية معظمها لمونيه ... لا شك في أن بريجيت ثرية فعلاً. لا يعرف من أين جاءت ثروتها وهو لم يسأل على كل حال. تتصرف كالوريثة الغنية التي تعبث بكومة من المال عبثًا.

هذه الصورة التي تحمل طابع الروكوكو الواضح تمثل فتاة أو امرأة بارعة الحسن تبتسم ابتسامة هادئة ناعسة .. أثار ذهوله التشابه القوي جدًا بين صاحبتها وبريجيت.

جاءت بريجيت جواره وهي تجفف شعرها المغسول وراحت تراقب ما يلفت نظره هكذا ..

قال لها:

-«هل هي جدتك؟»

هزت رأسها بطريقة ذات معنى وقالت:

-«اسمها دومينيك دو جالفان .. من صديقات ماركيزة شهيرة، وقد قطع رأسها بالمقصلة .. ظلت صورتها تذكر الناس بالوجه الجميل الذي كان»

قال في دهشة:

-«التشابه مطلق .. كأنها صورة رسمت لك أمس»

-«ألعاب الجينات لا تنتهي»

عندما تناولا الغداء معًا، كانت في قمة فتنتها الأنثوية وسحرها. كانت تلتقط طعامها في رفق، ثم قالت له:

-«هل يمكنك أن تأتي غدًا عند منتصف الليل؟»

هز رأسه .. هو مستعد دائمًا لأن يزورها في أي وقت، لكنها لم تحدد من قبل ساعة متأخرة كهذه وبهذه الدقة .. قالت باسمة:

-«أسئلة كثيرة سوف تجوب ذهنك لكني سأفسر كل شيء».

ورشفت رشفة من النبيذ ..

****

مدخل الفيلا كان مفتوحًا .. لابد أن الكلب يعبث في مكان ما من الحديقة ..

باب البيت مفتوح أيضًا. هناك فوضى عامة .. يبدو أنها كانت ليلة صاخبة .. لكن ما أثار دهشته هو أن هناك حقيبة أنثوية ومعطفًا في قاعة الجلوس. أشياء لا تخص بريجيت ..

هناك بعض الكؤوس وزجاجة كونياك مفتوحة ورائحة تبغ.

صاح بأعلى صوته:

-«بريجيت!»

جاء صوتها من بعيد .. كان قادمًا من الطابق العلوي .... لم يتبين ما قالته، لكنها كررت النداء:

-«أنا في الحمام بالطابق العلوي .. أغلق الباب وتعال»

متوجسًا اتجه إلى الدرجات وصعد فيها .. لربما هي لعبة إغراء معينة منها، لكن بريجيت علمته أنه لا يوجد شيء اسمه علاقة جسدية .. كأنها كائن بلا جسد..

كان الصوت قادمًا من الحمام .. وقف خلف الباب دقيقة .. يمكنه أن يشم رائحة دم مسفوك لا يعرف مصدرها ....

-«تعال يا رمزي .. ادخل»

في خجل مد رأسه .. هنا رأى مشهدًا لا يمكن وصفه .....

بريجيت لم تكن امرأة ..

بريجيت لم تكن رجلاً...

بريجيت لم تكن حيوانًا ..

بريجيت لم تكن شيطانًا ....

قالت له وهي منهمكة:

-«يمكنك أن ترى ما أفعله كلما مرت ستة أشهر ... في الماضي قام عالم مجنون بعمل هذه الجراحة لي، أما اليوم فأنا أعرف كيف أعملها مستعينة بالسحر»

أفرغ معدته .. وتمنى لو كانت لديه أحشاء أكثر يفرغها ..

لما استطاع الكلام سألها:

-«من هي؟ .. صاحبة الرأس!»

-«صديقة جديدة لي قلت لها إنني أريد أن أعرفها عليك»

كانت العملية تتم ببطء وسط بركة من الدماء. جسد بريجيت مقطوع الرأس يسبح هنالك.. ورأس الفتاة متدحرج هنالك على بعد أمتار، بينما التحم رأس بريجيت بالجسد الجديد المكتنز ..

كان يرتجف .. هذا يتجاوز حدود الكوابيس ....ولولا أن ساقيه منهكتان رخوتان لفر من هنا للأبد ...

-«هل أنت شيطان؟»

-«ربما أنا أسوأ»

هناك جلس في قاعة الجلوس وغطى وجهه.. لابد أنه غاب عن الوعي بضع دقائق، وعندما عاد إلى الوعى فطن إلى أن هذا كله يحدث فعلاً...

هناك وقف على باب الحمام يراقب العملية البشعة، والفتاة تحكي له قصة دومنيك الشيطانة. الشيطانة التي أخطأ رجال الثورة الفرنسية إعدامها ...

تصديق كل هذا

مستحيل لكن أي مستحيل بعد ما يراه أمام عينيه؟

قالت له:

-«دائرة لا تنتهي ولن تنتهي .. سوف تستمر للأبد. لن أظفر بالراحة يومًا. والحل الوحيد في يدك أنت .. لقد وقعت في حبك ووثقت فيك وخمنت أنك قادر على منحي الراحة فعلاً».

-«كيف؟»

-«أنا في وضع هش الآن .. مرحلة الانتقال الأولى. سوف تذهب إلى القبو فتحضر فأسًا وبعض الكيروسين ... ستهشم رأسي ثم تحرقه بالنار إلى أن يتفحم. صدقني هذا هو الخلاص الوحيد لي،

ولو لم تفعله فلسوف تسقط فتاة أخرى ميتة خلال ستة أشهر عندما يبلى هذا الجسد»

-«لكن الشـ ....»

-«لا أحد يعرف بقدومك هنا أو علاقتك بي. الحادث ضد مجهول»

التقزز يغمره ..

لكنه ذهب للقبو فعلاً وبحث عن الفأس والكيروسين، وخمن من الرائحة أن هذا المكان يستعمل كمدفن كذلك .. ثم أنه عاد لها حيث رقدت في الحمام...

همس من بين أسنانه:

«أنت تسامحينني.. أنت من طلب هذا ...»

ورفع الفأس وهوى به .. وأغمض عينيه وهوى عدة مرات.. ثم استكمل المهمة القذرة بالنار ..

كان قلبه يتواثب انفعالاً وهو يجمع حاجياته كلها تأهبًا لمغادرة الفيلا للأبد ..

غسل وجهه من أثر الدم. أما عن بقع الدم على الثياب فليأمل أن الليل سيداريها.

ركض نحو باب الفيلا المطل على الشارع، ونظر في الظلام .. لاحظ كثرة غير عادية للأضواء الوهاجة الملونة وسمع صوت السرينة. عندما رفع عينيه أدرك أن هناك أربع سيارات شرطة تحاصر المكان....

الفتاة التي ماتت كانت مرتابة .. لربما تركت بياناتها لدى صديق يبلغ الشرطة في حالة تأخرها. لربما سمع الجيران كذلك صوت صرخة ..

سيكون تفسير ما قام به مستحيلاً... دومنيك التي ظلت رأسها حية تبدو قصة عسيرة على التصديق. فقط براعته وبراعة محاميه ..سوف تنقذه من الإعدام لتنقله إلى مستشفى الأمراض العقلية. تقدم نحو الأضواء في بطء...

تـــمـــت

تلك المقبرة

١

سوف أحدثك عن مقبرة قريتنا.

لا تقل لي إني ابن المدينة، وإن نضارة الريف جفت في عروقي، فالحقيقة هي أنني سأظل ريفيًا إلى الأبد أحمل القرية داخلي. لا تتحرك كثيرًا فهذا يوتر أعصابي .. صدقني ليست قصتي طويلة ولن تثير مللك في الساعة القادمة. كما قلت لك: الريف يحيا داخلي، ولا أستطيع أن أشعر بألفة في المدينة .. أبحث عن متجر البقال البدائي وعن الكُتّاب المتهدم جوار المسجد الذي تتماسك جدرانه بمعجزة ..عن الساقية والترعة. عندما لا أجد هذا كله وأجد بدلاً منه الشوارع والسيارات فإنني أشعر باغتراب مقبض.

سأحدثك عن مقبرة قريتنا.

هناك عند الجهة الغربية من القرية يوجد حزام من أشجار التوت العتيقة، ومنحدر وعر يطل على حقل نصف محروث. تمشي في هذا الممر الطويل محاذرًا أن تتعثر فتسقط.. هنا يجري أمامك كلب أجرب أو قط هزيل، وترى السور المهدم الذي يحيط بالمقابر. لا تنس قراءة الفاتحة للأموات وأنت تمشي بين الشواهد. في الريف يزاولك الشعور بأن هؤلاء موتى .. هذه مساكن قوم يميلون للانطواء وعدم الاختلاط بالآخرين لا أكثر.

ولكن من قال إن الموت يساوي بين الرءوس؟ كل أنواع الطبقية ستجدها هنا بين قبور طينية فقيرة وقبور رخامية متغطرسة وأحواش أقرب إلى القصور! لا توجد مساواة في الموت كما ترى.

بعض الأسماء تعرفه على الفور .. أسرة الدهبي .. أسرة الدمام .. الخ .. وبعض الأسماء مجهول ..

كل مقبرة لها طابع يخصها، لكن المقبرة التي أتكلم عنها هنا فريدة من نوعها. مقبرة فقيرة هي أقرب إلى حجر يعلو كومة من الطين، وبخط طفولي ساذج كتبت آية قرآنية (فيها خطأ لغوي) واسم صاحب القبر: (المرحوم عزت الدرهيبي) الذي يقال إنه توفي عام ١٩٣٦. لا شك أن القبر لم يُفتح منذ أغلق على عزت، فلا أقارب له في البلدة ولا أولاد. لم يزرع أحدهم بعض الصبار أو يرش الماء على التربة قط .. بالواقع لا يذكر أي واحد حرفًا عن عزت هذا.. لقد وُجد ثم زال فلم يبق منه سوى اسمه ..

على كل حال يوجد احتمال لا بأس به أن المقبرة خالية من الجثث. هناك آثار نبش قوية حولها، وثمة اعتقاد أن بعض اللصوص سرقوا الجثة وباعوها. أنت الآن تفهم كيف بدأ الأمر وأعتقد أنني لم أخبرك بشيء جديد ..

أرجو أن تصغي لي باهتمام ..

الأسطورة الشائعة في القرية هي أن المقبرة مسحورة، وأن التعامل معها يجلب الوبال، لكنهم يعتقدون كذلك أنك لو دفنت فيها مالاً لمدة ليلتين ثم عدت للمقبرة لوجدته قد تضاعف. لا شك أن هناك من جرب هذا، لكن لم تكن هذه التجربة تلاقي إقبالاً على كل حال بسبب الخوف من المقبرة، وكما قال إمام المسجد:

-«التعاطي مع الجن له فوائد جمة، لكن له أخطارًا جمة كذلك»

في سن العشرين ذهبت ليلاً إلى المقبرة وبعناية دفنت خمسة جنيهات. ثم فررت وقلبي يتواثب كالطبل .. بعد ليلتين عدت إلى هناك ورحت أحفر الأرض بملعقة معدنية على ضوء الكشاف. وجدت ورقة مطوية بعشرة جنيهات **!**.. الإشاعة حقيقية إذن**!**

****

بعد هذه التجربة بأيام أصبت بوعكة لعينة من التيفويد. كدت أفقد حياتي وأحتاج العلاج إلى شهر كامل، ولم أكن قد أخبرت أحدًا بتجربتي مع المقبرة، لكني قدرت أن سبب المرض هو لعنة الجان على الأرجح .. من يلهُ بالنار يحترق بها، ولابد أنني لهوت أكثر من اللازم.

جاءت أمي بقطعة من الورق قطعتها على شكل دمية، ثم راحت تثقبها بالإبرة وهي تردد بعض الأدعية، ثم وضعتها فوق البخور

المشتعل فتفحمت .. قالت لي إن الدمية تمثلني، ويبدو أن هناك عينًا شريرة أصابتني.

كنت أفكر في عشرة الجنيهات القادمة من المقبرة، وأعترف أنني لم أجسر على صرفها قط. طاقة التابوو المحيطة بها جعلتني عاجزًا عن إنفاقها أو حتى لمسها. وضعتها بين دفتي كتاب لا أفتحه إلا نادرًا ..

في سيارة الأجرة المتجهة إلى بنها، مدينة الجن والملائكة بالنسبة لنا نحن القرويين، كنت جالسًا جوار صبري صديقي وهو طالب في كلية الزراعة.

قال لي صبري بلا مناسبة إنه جرب أن يدفن بعض المال في قبر الدرهيبي، وعاد بعد ليلتين ليتفقده ..

جف ريقي وتساءلت في لهفة عما وجده.. قال في خيبة أمل:

ـ«لم أجد المال أصلاً.. هناك من سرقه .. كانت هناك آثار أقدام قرب المقبرة .. هناك مخادع ينشر هذه الأكاذيب ليجمع المال، كما يحدث في تلك الآبار التي يزعمون أنك لو ألقيت فيها مالاً لتحققت أمنيتك. طبعًا ليذهب أحدهم لينزح العملات في قاع البئر بعد هذا.. مقبرة الدرهيبي خدعة وقد كلفتني مائة جنيه».

ابتسمت في عصبية ولم أخبره أن تجربتي أنا قد نجحت ..

لا أعرف التفسير لكنه مخيف على الأرجح، وعلى الأرجح كذلك تضاعف ماله لكن هناك من سرقه قبل أن يعود صبري لموضع المال. قال صبري وهو يرتجف:

-«هذا قبر غريب .. هل لاحظت أن الطيور لا تحلق فوقه أبدًا، وأنه لا توجد نباتات من حوله ؟»

قلت في ملل وأنا أراقب الطريق:

-«هذا متوقع .. الرجل مقطوع من شجرة ولا يعرف أحد شيئًا عنه ..لا أحد يُعنى بالقبر .. »

-«الطيور لا تعرف هذا»

«حيث لا توجد نباتات لا توجد طيور».

٢

كنت طالبًا في كلية الآداب، وكنا نقيم في شقة رخيصة فقيرة في حي شعبي قريب من الجامعة. طعامنا هو ما نأتي به من القرية أو هو الفول وعلب السردين. كنت أحب مطالعة رواية الأيام لطه حسين؛ لأنها تعطيني بعض الأمل أن هذه البداية قد تقود لنهاية طيبة. كان معنا طالب حقوق وطالب طب ومعظمهم من قريتي..

لم تقع أحداث مهمة طيلة سني الكلية إلا أنني قابلت طالبًا اسمه سيد الدرهيبي. كان هذا اسمًا عجيبًا غير مألوف، وقد أخبرته بأن له قريبًا مدفونًا في قريتنا اسمه عزت الدرهيبي. اندهش جدًا ووعدني بأن يسأل أهله عن هذا الجد، وأعتقد أننا صرنا صديقين حميمين ..

بعد أسبوعين التقينا فكررت سؤالي عن جده غريب الاسم، فقال في عصبية:

«لقد سألت الكبار .. هناك تفاصيل كثيرة، لكن أنصحك أن تنسى هذا الرجل. هناك أشياء إن تبد لكم تسؤكم. من مصلحة الجميع أن ينسوا هذا الرجل، وأبي يذكر القصة بشكل ضبابي، لكنه أوصاني ألا أتعمق في الأمر ..»

تساءلت في فضول:

«أنت أشعلت تطلعاتي ولم تطفئها .. بعد كل هذا الذي قلته لا أحسبني سأفكر في أي شيء غير عزت الدرهيبي وقبره»

قال الفتى وهو يبتعد:

«وأنا أعرف الآن أنه قريبي .. وأنصحك أن تنساه تمامًا إذا أردت الاحتفاظ بصداقتي!»

كان الأمر يفوق قدراتي على التحمل.

انتهت سنوات الدراسة .. أرجو ألا تتحرك كثيرًا فهذا يشتت ذهني فلا أستطيع استكمال القصة. هل ترغب في لفافة تبغ؟. لا بأس ... هذا يريح أعصابك قليلاً وإن كان يسبب لي مشكلة. سيكون الأمر عسيرًا.

أقول إن سنوات الدراسة انتهت ووجدت نفسي معلمًا في مدرسة صغيرة في بلدة مجاورة، وقد تمكنت بكثير من الجهد والوساطة أن أعمل في مدرسة ببنها. تعلمت التدخين كما ترى، ومعه تعلمت أشياء كثيرة. الإقامة وحدك في مدينة مع أصدقاء تدفعك لتجربة عدة أشياء .. ليس كلها مستحبًا ...

بالإضافة لهذا كنت قد وقعت في حب «مي» المدرسة الحسناء زميلتي في المدرسة، وقد عرضت عليها حبي فلم تبد معترضة. لكنها كانت تنتظر اللحظة التي أتقدم لها طالبًا يدها من أبيها، وكنت أخشى هذه الخطوة جدًا لأنني أدرك أنني مفلس تقريبًا .. لا أحتكم إلا على راتبي. إن مقابلة أبيها براتبي هذا نوع من الإهانة للرجل بلا شك.

في النهاية تشجعت وذهبت لأقابل أباها ومعي أخي الأكبر، وكانت جلسة ناجحة لأنني بذلت الكثير من الوعود المالية .. وعود لا

أملك قرشًا منها، وكان أخي ينظر لي في دهشة وحيرة عاجزًا عن الاعتراض .. لا يريد فضائح هاهنا ..

عندما غادرنا الدار بعد قراءة الفاتحة، كان موشكًا على فقدان الوعي وقال لي:

«أنت تورطت وورطتني معك في وعود مستحيلة»

قلت في غموض إنني سأعرف كيف أتصرف ..

لكني في النهاية جربت الاقتراض من كل أصدقائي ومن كل جهة يمكنها أن تقرضني .. لا جدوى هنالك .. لا أحد يعطيك مالاً في هذا العالم .. كنت أشعر باختناق وازددت عصبية.

لابد من طريقة لصنع المال في هذا العالم. هناك السرقة وهناك الميراث وهناك الزواج من حيزبون ثرية وهناك الذهاب للعمل في الخليج.. وكلها خيارات غير متاحة لي. واضح أنني سأعود إلى مي لأخبرها أني عاجز وأطلب منها أن تعتذر لأبيها على ضياع وقته.

على أنني في تلك الليلة نمت مهمومًا، وفي المنام رأيت رجلاً فارع الطول يصعب أن أميز وجهه، وكان يتقدم نحوي عبر مقابر مظلمة يغطي الضباب شواهدها، وكان يمد يده لي. يردد بصوت عميق:

«عد إلى الدرهيبي .. أنت تعرف الجواب».

شعرت بحاجة شديدة إلى أن ألحق به وأمد يدي له. في الوقت نفسه كنت أتهيب اللقاء. عندما صحوت من النوم كنت غارقًا في العرق البارد وشفتاي كانت جافتين كالقش. أمسكت بكوب الماء جوار الفراش وجرعت منه.

سيد الدرهيبي .. يجب أن أجده وأعرف ما يعرفه .. لكن كيف ألقاه ثانية؟ هو ليس من قريتي. على الأقل أعرف أنه مدرس وأنه خريج نفس كلية الآداب. كنا صديقين أيام الكلية كما عرفت، لكن بشرط ألا أذكر سيرة قريبه الغامض.

حان الوقت لإعادة التجربة. أنا ناضج اليوم وأعرف أنها هراء على الأرجح، لكني في ظروف تجعلني أجرب كل شيء.

هكذا عدت لقريتي فقضيت يومًا عاديًا مع الأصدقاء والأقارب .. عندما جاء المساء أخذت الكشاف ومشيت وحدي نحو المقابر. لم يكن من داع للكشاف لأن قمرًا حزينًا باهتًا كان يطل على المكان، ويراقب كل شيء. جواره ذلك النجم الذي يسمونه (أخت القمر). وكانت بعض الذئاب تعوي من بعيد بصوتها الكئيب الباعث للرهبة. أحفظ جيدًا الطريق إلى قبر عزت الدرهيبي الذي ألهب خيالي في الماضي، ولو جئت أنت قريتنا فلسوف تعرفه على الفور من طابعه المخيف وخلو المساحة حوله من أي نبات.

سوف أجرب حظي مرة أخرى. لا تلمني فقد أخبرتك بالمأزق الذي أمر به.

٣

على ركبتي جثوت، ورحت أزيل الغبار عن الشاهد الحجري ذي الكتابة البدائية. شخص آخر أشجع مني وأكثر جرأة كان سيجرب نبش هذا القبر ليعرف ما فيه ..

القبر أقرب لكومة من طين ترتفع فوق الأرض.. هناك على اليمين فتحة مسدودة بالملاط واضح أنها التي أدخلوا الجثة منها. لا أنكر أن هناك رائحة عطنة، ومن المستحيل طبعًا أن تكون رائحة الجثة بالداخل، فهي مدفونة منذ نحو تسعين عامًا .. لابد أن حيوانًا قد نفق هنا في وقت قريب.

أخرجت ورقة بمئة جنيه، ولففتها في قطعة من غشاء السلوفين، ثم دفنتها بعناية وأهلت فوقها الغبار. كان قلبي يرتجف، وخطر لي أن أحدهم سيأتي من خلفي ويضع يده على كتفي ليقول شيئًا!... تبًا!. سأخيف نفسي حتى الموت!

لقد نفذت جزئي من الصفقة .. دعنا نرَ ما سيفعله القبر.

نهضت وبخطوات مسرعة وقلبي يثب في فمي مغادرًا الجبانة. كلب أجرب راح ينبح في وجهي، لكني رحبت به كثيرًا .. على الأقل هذا كائن طبيعي من عالمنا ...

عندما عدت لداري ونمت كان نومًا كئيبًا يسبح في العرق والكوابيس ..

بعد ليلتين قمت بالمغامرة مرة أخرى. حملت الكشاف وانتظرت حتى تغطى العالم بالليل، وزحفت تحت ذلك الغطاء الكثيف نحو المقابر. مشيت في الممر الضيق الذي يطل على الحقل المحروث، ولعله الارتباك الذي جعلني أتعثر أكثر من مرة ..

في النهاية وصلت إلى المقبرة المرهوبة، فركعت على الأرض ورحت أعبث بحثًا عن الكيس الذي أخفيته أمس .. أين هي؟ ثم شعرت بالسلوفين فقبضت على الشيء وأخرجته. على ضوء الكشاف تأملت اللفافة ثم فتحتها لأجد ورقة بمائتي جنيه**!**

كان قلبي موشكًا على التوقف من فرط الانفعال. الأمر حقيقي إذن .. ما حدث في صباي لم يكن وهمًا أو مصادفة.

ليكن ما يكون .. ليكن هذا لعبًا مع النار أو لا .. هذا القبر هو سري الخاص ولسوف يحل مشاكلي الخاصة. عدت للبيت حيث نامت الأسرة، فدخلت إلى غرفتي الريفية الواسعة واستلقيت في

الفراش أتفحص الورقة ذات المائتي جنيه .. لا غبار عليها .. ليست مزورة ..

لا توجد أي آثار أقدام حول المقبرة .. ليس هناك من يتسلى بي أو يعابثني. وفي النهاية لم يرني أحد وأنا أدفن اللفافة فكيف يأتي بعدها ليبدلها؟

في الصباح ذهبت إلى المدينة .. ذهبت إلى المصرف وسحبت معظم مدخراتي: عشرة آلاف جنيه، ثم ركبت سيارة أجرة متداعية عائدًا إلى قريتي ..

سألتني أمي عن سبب خروجي المتكرر ليلاً فقلت لها إنه الملل لا أكثر .. وعندما جاء المساء خرجت مسلحًا بالكشاف وكيس صغير فيه المبلغ الهائل الذي أملكه. عندما تحمله في يدك تدرك كم هو ضئيل تافه ..

مضيت بين أشجار التوت وبين شواهد القبور الغافية .. وعلى ضوء الكشاف حفرت حفرة أعمق نوعًا في المقبرة، ثم تلفت حولي ودفنت المال.

فلنأمل أن تكون الأسطورة صادقة وألا أكون أحمق شخص في العالم كما أتوقع.

لم أستطع البقاء في القرية ليومين.. كنت متوترًا بحق .. لو نجحت التجربة الجديدة فكل ما علي هو أن أكرر هذا العمل عدة أيام. عشرة آلاف جنيه ستكون نصف مليون بعد مثابرة عدة أيام.

دعني أواصل الحكاية أرجوك وكف عن التململ .. أكره المستمعين نافدي الصبر فعلاً. يستفزونني. أقول إنني قضيت يومين في المدينة. كنت في حالة عصبية أوشك على دفع عقارب الساعة بكتفي لتتحرك ..

هل قلت لك إنني قابلت سيد الدرهيبي بالصدفة؟ وجدته في ميدان المحطة وكان يبتاع جريدة، فهرعت نحوه. لم أبذل جهدًا لتذكيره بي لأنه عرفني على الفور. تعانقنا وسألني عن أحوالي.. قال إنه تزوج ويقيم في القاهرة. إذن لماذا أنت هنا؟ لم يفسر ..

جلسنا على أحد المقاهي وتبادلنا الأحاديث، ثم جاء السؤال الذي أرهقني كل هذه الأعوام:

«للمرة الأخيرة أسألك.. ماذا تعرف عن عزت الدرهيبي؟»

توقعت أن ينصرف غاضبًا، لكنه هذه المرة تردد قليلاً.. سحب الدخان من الشيشة وأطلق سحابة كثيفة، ثم قال:

«كل أسرة لديها وصمة عار، وقد أرغموه على ترك الأسرة والإقامة في قريتكم حيث مات...»

«وما هي وصمة عاره بالضبط؟»

«لا أدري بالضبط .. كان ماجنًا وارتكب الكثير جدًا من الموبقات .. ويقال إنه مارس السحر الأسود. كان لديه كتاب اسمه (شمس المعارف الكبرى) وكان يستعمله ككتاب مقدس يهتدي به..»

بدأ الأمر يتضح لي .. توقعت شيئًا كهذا. فقال سيد:

«أقول لك هذا الكلام للمرة الأخيرة .. في أسرتنا لا يذكرونه بتاتًا ويعتقدون أن سيرته تجلب الشؤم»

شمس المعارف الكبرى!.. الرجل كان يمارس السحر إذن ..لا أعرف خواص مقابر السحرة، لكنها بالتأكيد تختلف عن المقابر العادية التي ندفن نحن فيها ..

افترقنا وأنا أفكر في نقودي العزيزة التي تكمن هناك في قبر منسي مهمل في قريتي. ماذا حدث لها؟

عدت لقريتي بعد يومين وانتظرت حتى جاء الليل، فتسلحت بالكشاف ومشيت في طريقي المعتاد بين أشجار التوت حتى الطريق المتعرج الذي يطل على حقل منحدر. ثم بلغت القبر ... مددت يدي في لهفة ورحت أحثو التراب عنه حيث دفنت مالي أمس.

لم يكن هناك شيء!!!

٤

الكيس الذي وضعته منذ يومين قد اختفى بمالي الذي يمثل معظم ثروتي. لقد وقعت في الفخ، مثل ضحايا النصابين الذين نقرأ عنهم في الصحف .. لكني كنت أحسبني أكثر ذكاء من ذلك. مدبر هذا الأمر ذكي حقًا أنفق القليل ليجني الكثير.

جلست على الأرض أحك رأسي .. صورة ناطقة بالعجز والحيرة. صوت الكلاب تنبح من بعيد وصرصور الحقل يغازل أنثاه .. لا مخرج أمامي .. لا يوجد من أتهمه حتى لو طلبت الشرطة .. المشكلة مشكلتي ويجب أن أجد حلاً لها.

بدأت تمشيط التربة المحيطة بالقبر بحثًا عن آثار أقدام سارقي.. لم تكن هناك أي آثار وهذا غريب. ثم لاحظت أن هناك أقدامًا مخلبية شبيهة بأقدام الكلاب.. هذه الأقدام تنحدر من شاهد القبر نحو .. نحو الفتحة الموجودة على اليمين في مستوى الأرض وهي الفتحة التي يدخلون الجثة منها. أثار دهشتي أن الفتحة لم تعد مسدودة بالملاط كما كانت .. إنها مفتوحة كأنها جحر ثعلب.

ثعلب أو بنت آوى .. لا أدري .. لكن من المستحيل أن يسرق مالي. الحيوانات أذكى من أن تهتم بأوراق كريهة المذاق مثلنا

معشر البشر. ما أعرفه يقينًا هو أن هذا الجحر يحوي لغزًا. كنت أحمل مطواة صغيرة من النوع الذي يُطوى فأخرجتها ورحت بنصلها أحاول أن أوسع الفتحة أكثر فأكثر ..

كانت التربة هشة .. وسرعان ما نجحت في صنع فتحة تكفي لدخول رجل بالغ. رميت بضوء الكشاف داخل القبر وحاولت أن أرى شيئًا .. هنا خطر لي أن هذا القبر أوسع وأكبر مما تخيلت بكثير.

لا تضايقني أرجوك .. قصتي موشكة على الانتهاء. قلت لك إنني تسللت إلى داخل المقبرة وأضأت الكشاف .كانت المقبرة واسعة بحجم غرفة .. أكثر مما تخيلت بكثير.

أدركت أن هناك عددًا من الأنفاق الجانبية في الجدران .. نحو أربعة أنفاق لا أعرف أهميتها ولا قيمتها، ولم أفهم كيف لا تتداعى التربة لتسد هذه الأنفاق. رحت أبحث على ضوء الكشاف عن مالي .. بالفعل وجدت الكيس الذي دفنته .. بيد مرتجفة وعلى ضوء الكشاف فتحته فوجدت نقودي كما هي .. لم تزدد ولم تنقص. السؤال هو: من جاء بها هنا؟

قررت أن الوقت قد حان لكي أعود .. بعد كل شيء أنا في مقبرة تحت الأرض في منتصف الليل. لست من الطراز قوي الأعصاب إلى هذا الحد. لقد استرددت مالي وفيما بعد سأقضي الساعات

محاولاً فهم ما حدث: جان .. شياطين .. ثعالب .. شخص يمزح .. أي شيء..

لكني اكتشفت أن الفتحة التي مررت منها قد انسدت .. كيف ومتى؟ لا بأس .. يمكن أن أحفر واحدة أخرى فالتربة هشة هنا. فجأة تحول كل شيء إلى هلاوس مخيفة .. لست واثقًا مما رأيت ولربما أثر المناخ علي. لقد رأيت الجدران تذوب وتتحول إلى كتل من لهب .. كانت أجسادًا مشتعلة تخرج من اللهب وترقص حولي. الجان خلقوا من مارج من نار، فهل هؤلاء جان؟

كانت الأرض تذوب بدورها، وتتحول إلى حمم لكنها غير حارقة .. لم تحترق قدماي. وأمامي رأيت الجدار ينصهر .. ينصهر كاشفًا عن فجوة أقرب لمحراب في الصخر، وعندما دققت النظر أكثر أدركت ان هذه مومياء جالسة .. مومياء رجل فارع الطول مدثر في كفن أبيض. عرفت على الفور من هو.. هذه مومياء عزت الدرهيبي. نفس الرجل الذي كان يطاردني في المنام.

سمعت صوتًا قادمًا من لا مكان يردد:

«عد إلى الدرهيبي .. أنت تعرف الجواب»

ثم أردف ذلك الصوت القادم من لا مكان:

«كنت أنتظر نحو مئة عام حتى يتجاسر أحدهم ويدخل هنا. لقد سئمت الحياة أو بمعنى أصح سئمت الموت.. أن تطاردك لعنة أبدية تحرمك الراحة إلى يوم الدين. تقتات بالجيران الذين تجدهم في القبور وتسرقهم من الأنفاق .. كانت الشياطين تلعب مع الفانين لعبة مضاعفة المال، وخطر لي أن أحدهم سيستبد به الفضول ويدخل هاهنا . أنت أول من تجاسر ودخل، وقد حقت لي الراحة .. حق لي أن أتحلل. انتهت حياتي كغول وبدأت حياتك**!**»

ورأيت وأنا موشك على فقدان الوعي المومياء تذوب بدورها .. ملامحها تضمحل وتتلاشى ... كأنها قطعة فحم مشتعلة تتلاشى جذوتها.. ومن حولي دارت رقصة الشياطين .. وسمعت أغنية مخيفة لم أفهم حرفًا من كلماتها ..وسرعان ما تداعيت وغبت عن العالم.

عندما أفقت كنت خارج المقبرة .. وكان الفجر دانيًا..

عدت لداري وعرفت ما يجب علي القيام به .. عزت كان ميتًا لهذا كان يقتات على الجيف، أما أنا فمن حقي أن أجرب لحمًا طازجًا نضرًا .. لقد تغيرت حياتي بالكامل.

الآن أنت تعرف القصة يا سامي، وتعرف لماذا اصطحبتك للمقبرة ليلاً، وتعرف لماذا أنت مقيد ومكمم الفم جوارها الآن .. لقد انتهت قصتي وحان وقت العمل. لا تحاول الصراخ فلن يسمعك أحد .. سأحاول أن تمر اللحظات القادمة بسرعة.

الأعمال الكاملة ٨٢٩

أحمد خالد توفيق
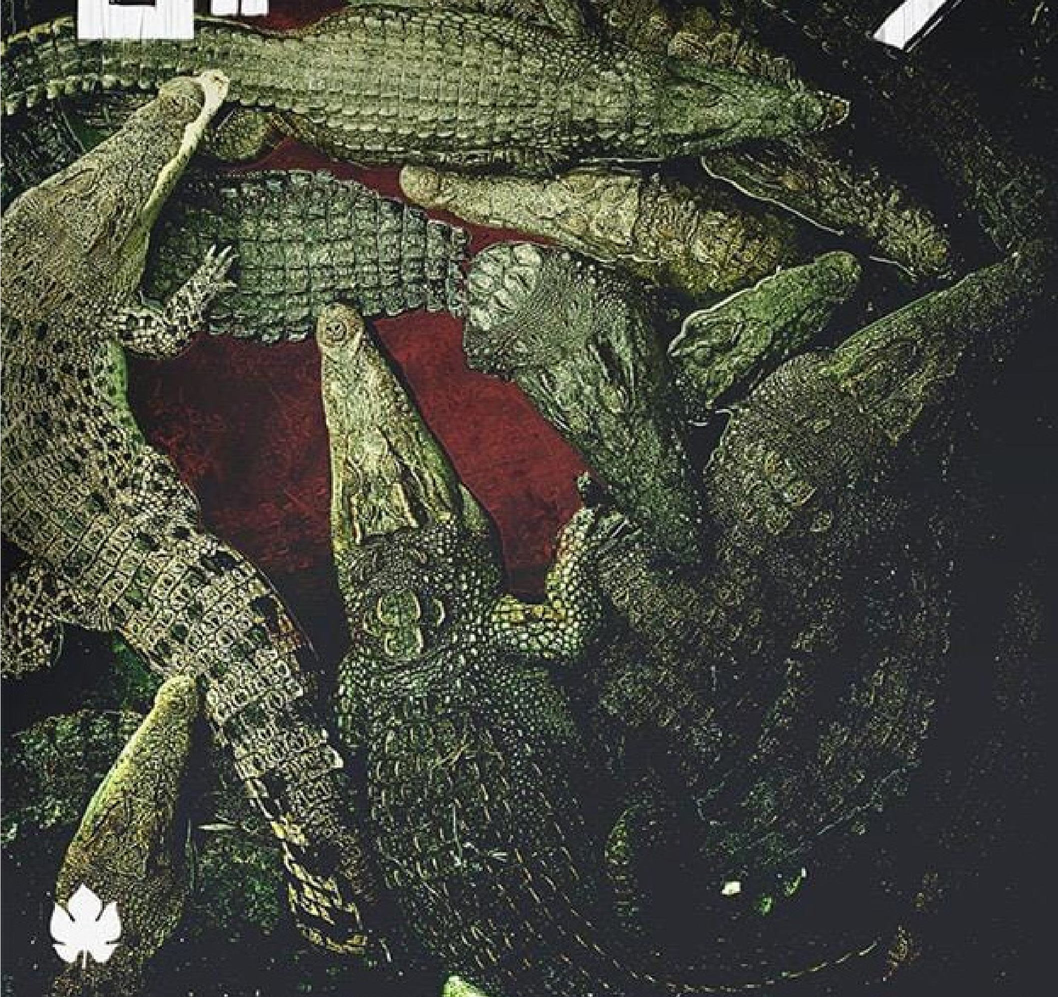
رفقاء الليل